غازي بن عبدالرحمن القصيبي

المواسم

مقالة

Damah
دامة
للدراسات والنشر

غازي بن عبدالرحمن القصيبي

المواسم

مقالة

Damah
للدراسات
والنشر

ⓒ مؤسسة دامه ، ١٤٢٧ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القصيبي، غازي بن عبدالرحمن
المواسم / غازي بن عبدالرحمن القصيبي - جدة، ١٤٢٧هـ
٩٦ ص ، ٢١ سم
ردمك: ٦-١٦٦-٥٦-٩٩٦٠
١- القصيبي ، غازي بن عبدالرحمن ٢- الوزراء السعوديون
٣- السعودية - تراجم ، العنوان
ديوي ٩٢٣،٢٥٣١ ٤٠٥٠ / ١٤٢٧
رقم الإيداع : ٤٠٥٠ / ١٤٢٧
ردمك : ٦-١٦٦-٥٦-٩٩٦٠

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦ م

Damah
دامة
للدراسات الإعلامية والنشر
المملكة العربية السعودية
جدة - ص. ب ١٥٨٠٤ جدة ٢١٤٥٤
تلفون ٠٢/٢٥٦١٩١١ فاكس ٠٢/٢٥٦١٨٤١
DAMAHMEDIA@GMAIL.COM

لوحة الغلاف

الفناء الداخلي لبيت القصيبي
القديم في الرفاع . والمشهد
يعود إلى الخمسينات الميلادية

الإهداء

إلى

الصديق

خالد بن محمد القصيبي

رفيق المواسم السعيدة والكئيبة

يا موسم اللذّات! غالتك النوى

بعدي.. فربعك للصبابة موسمُ

أبو تمام

تسكنك هواجس الرحيل . تشعر أن المسافة بينك وبين نهاية الطريق تهرب بسرعة غير مألوفة. تشكو أشياء لم تكن تشكو منها. تلمس في جسدك ضعفاً لم يعهده من قبل. تصحو مكدوداً . وتأوي إلى فراشك مرهقاً. لا يجيء النوم الذي كان لا يغيب. تأتي أفكار معتمة كدخان أسود. وتتقلب حتى يملك الفراش. وتملك صفحات الكتاب الذي رجوته حليفاً للنوم فانقلب صديقاً للأرق.

تصحو متثاقلاً. وتتخيل في نظرات الذين يحبونك إشفاقاً لم يكن يسكنها. وتتخيل في نظرات الآخرين. حسناً! دعك من الآخرين ونظراتهم! هي صدمة الشيخوخة جاءت بعد ربع قرن من الصدمة الأولى، صدمة منتصف العمر. والفرق بين الصدمتين شاسع جداً.

في صدمة منتصف العمر، كنت تحس بشيء في

النفس، شيء غامض، شيء أسيف كئيب. تحسه في نفسك ولكنه لا يصل إلى روحك.

أما الآن. وفي الخامسة والستين، فبلاؤك في الروح. وهل هناك فارق بين النفس والروح؟ هذا موضوع عويص، مزلة أقلام وأفهام. يكفي أن تقول إن الروح، في هذا السياق، سر الحياة. أما النفس فميدانها. ما يؤلم الروح يخنق الحياة نفسها، أما ما يؤذي النفس فيضر بتجلياتها. أزمتك أزمة روح وأزمة جسد. أزمة روح تململت في سجن الجسد، وأزمة جسد أضناه تململ الروح. لا! استغفر الله! لا ينبغي أن تقول هذا. ستضطرب روحك في جسدك ما شاء الله أن تضطرب. وستهجره عندما يشاء الله أن تهجره. ليس لك من شؤون الحياة والموت شيء. له الخلق والأمر. له ما يعطي وله ما يأخذ. لا راد ولا معقب. وله الحمد في الدنيا والآخرة.

بهذا الرضا عشت ما عشت. وبهذا الرضا تموت حين تموت. وما بالك الآن، وأنت في قبضة الصدمة الخانقة، تبتلى بموت من تحب؟ تسير القافلة الحزينة الدؤوب بشقيقتك حياة. "أختي حياة!" كما سميتها منذ أن تعلمت أن تتكلم إلى أن قبلت جبينها البارد.

أختك حياة لم تكن امرأة عادية. كانت بحجم الحياة . أو أكبر قليلاً. كانت عاصفة بشرية لا تهدأ، ولا تترك هدوءاً حولها. كانت تحب بعمق وتطرف، وكانت تعادي بعمق وتطرف. يدفعها الحب إلى تملّك لا يرتبط، عادة، بالحب. ويدفعها العداء إلى شيء كالشفقة لا يعهد في العداء. كانت أختك قد استقالت من الحياة منذ وفاة فاروق، ابنها البكر، قبل عدة سنوات، فوجئت أنت، وفوجئ الناس، بامرأة جديدة لم يروها من قبل. امرأة شامخة انهارت، بغتة، كجبل مهيب من الرمال. ذهب معظم روحها مع ابنها الذي ذهب

وبقي شيء منها لا يدري ما يفعل بنفسه. أو بالجسد الذي يضمر وينكمش. يا الله! كيف حدث هذا لحياة؟. حياة الفولاذية كيف تحولت إلى حياة الهلامية؟ كانت سنواتها الأخيرة مشهداً واجما يتكرر كل يوم. النظرة الشاردة أمام الصورة الصامتة في الزاوية المليئة بالظلال. كان سكوت العاصفة مخيفاً، كما كان هديرها مفزعاً. ذهبت الابتسامة ولم تعد. ذهبت الفرحة بالدنيا، ولم تؤب. ذات يوم، ذات يوم بعيد، كانت ترتدي أجمل الثياب وأكثرها أناقة وأغلاها ثمناً. ثم عشقت هذا القفطان الشاحب فما تطيق أن تفارقه، ذات يوم كانت شيطانة مشاغبة تضحك من الأعماق. ثم أصبح الضحك ذكرى عصية لا تستطيع أن تسترجع ملامحها. وأنت، في زياراتك القليلة الشحيحة، تنفخ في الرماد. تحاول أن تسترد شيئاً من العاصفة، من حياة القديمة. وهي سعيدة برؤيتك.

تحاول جهدها أن تبتسم. أن تصطاد ذكرى الضحكة. تحاول ولا تفلح. وأنت تلجأ إلى الحيل التي أتقنتها عبر السنين لاسترداد لحظة مرح. ويغيب الوجه الصامت الشارد، وترى الوجه القديم، الوجه الجميل، الوجه الذي لا ينسى. وتجيء الابتسامة المشرقة. وتعود وأنت طفل في السادسة. تفصلك عنها سنوات تسع، كانت، وقتها، ردحاً طويلاً. كانت لتوها أنجبت فاروق. ولم يكن من الصعب على الأم الصغيرة أن تعتبرك أقرب إلى الابن من الأخ. ونشأ فاروق يحسبك أخاه الأكبر حتى علموه أن يقول "خالي غازي!" . آه ! فاروق! رحمه الله! نشأ طفلاً متمرداً. تمرد على المدرسة والدراسة، والتعليم والمعلمين. وتحول رجلاً متمرداً. لا تهمه أعراف المجتمع. لا تهمه المادة التي يقدسها المجتمع. لا يعترف بالقيود التي يربط بها المجتمع كل من يعيش فيه, يعشق الحيوانات. يلمس العقارب والأفاعي ولا

تؤذيه. يصادق الذئب. ينام معه في فراش واحد. ودفع ثمن تمرده. هل هناك من يتحدى المجتمع وينجو؟ مات قبل أن يموت شبابه. وماتت معه أختك قبل أن تموت. أختك التي كانت تقسم جسمها وروحها في أجسام وأرواح كثيرة. فاروق وفاطمة وسهير وخلود وغادة وسحر وأسامة. ويوسف. يوسف رفيق العمر. زوجها وابن عمها. تزوجته يوم كانت في الرابعة عشرة وكان في العشرين. وكانت العلاقة بينهما غريبة بعض الشيء. كالعلاقة بين كل زوج وزوجة. غامضة بعض الشيء. ظاهرها غير باطنها. حياة مشتركة امتدت ستين سنة. وعندما يطول عمر الزواج تنشأ بين الزوجين رابطة غير مرئية وغير محسوسة لا يراها الآخرون. رابطة لا علاقة لها بالمشاكل اليومية. ولا بأعباء الحياة الكثيرة. ولا بمشاغلها. رابطة تشدّ روحاً بروح. بخيوط غريبة لا يعرف بوجودها أحد. وعندما

تكف روح عن النبض تنتقض الخيوط. ويحدث شيء للروح الأخرى. ترتعد وترتعش. وقد تكف عن الخفقان. وهذا ما حدث لأختك حياة. مفاجأة أخرى. رحل يوسف . وبعد ذهابه، بشهور تسعة، رحلت هي.

ذهب يوسف كما كان يود أن يذهب. بلا مرض مقعد. بدون يأس الشيخوخة المكسوة بالصقيع. يوسف، ابن عمك وزوج أختك، كان رجلاً جميلاً، إن جاز التعبير. كان وسيماً في مظهره. وكان وسيماً في طباعه، كان دائم الابتسامة، حاضر الضحكة. وكان مضيافاً إلى أبعد الحدود. رفعته الدنيا إلى أعلى قممها، ولم يبطر. وقذفت به من شاهق، فلم يتذمر. كان بيته مفتوحاً للضيوف. وكان قلبه مفتوحاً للناس. وكان متفائلاً، بعنف. يرى الضوء في النفق المختنق بالسواد. يرى في كل نكسة فرصة. وينفق ما في الجيب بثقة مطلقة في الغيب. هذا الرجل الجميل.

كان يضحك مع بناته. وشعر بألم طفيف. وذهب إلى المستشفى. وهناك نام ولم يفق, مات بهدوء واهتزت الخيوط التي تربط روح الزوج بروح الزوجة. دون أن يشعر أحد. وهاهي ذي زوجته نائمة في مخدعها بلا أحلام. بلا كوابيس. وبلا صراخ. وفاطمة تصر على أن تأخذك لتودعها. وأنت تمانع. وتمانع. لا تطيق أن ترى الموت حيث كانت الحياة. لا تود أن تصدق أن هذه النومة تختلف عن غيرها: "لا تقلب المُضجَع عن جنبه". كما قال صاحبك القديم. وتسحبك فاطمة سحباً إلى الغرفة. وترفع الغطاء عن وجه أختك وتقبل جبينها البارد. وتحس بالبرودة تتغلغل في قلبك. وتجهش بالبكاء. وتفر من الغرفة الباردة. وأختك النائمة بسلام. وها أنت ذا أمام القبر الآن. لحظة الحقيقة!. تشهد. بعينيك. أختك تغيب شيئاً فشيئاً. تختفي في أعماق القبر. في "مقبرة الشهداء".

في بيروت. وفي هذه المقبرة يرقد أحباب كثيرون. بقرب حياة. التي جاء قبرها بجوار قبر يوسف. قرب في الحياة وفي الممات. وهناك قبر سعاد. "ستّك سعاد". التي لم تعرف أماً غيرها والتي لم تشهد موتها ولا دفنها. كنت بعيدا في أعماق اليمن. في مهمة رسمية. مهمتك الرسمية الأولى. أخطر مهماتك وأغربها.

وكانت تموت في بيروت . إثر عملية جراحية. ولم يشأ عادل، أخوك عادلُ، الذي كان قربها حين ماتت أن يخبرك بموتها. قال إنها مريضة. وجئت إلى بيروت عبر رحلة طويلة. معقّدة بعض الشيء. لتجدها قد ماتت ودفنت. ولتقف باكياً أمام قبرها. في "مقبرة الشهداء". في خريف سنة ١٩٦٥م. كنت في الخامسة والعشرين. تواجه الموت لأول مرة. هل تذكركم كم كنت تخاف عليها الموت؟ تخاف عليها وتخاف على نفسك. تخاف أن تواجه الحياة بدونها. هل تذكر كيف

كنت تدعو الله أن يؤجل موتها حتى تستطيع أن
تتحمل وطأته؟ لم تمت وأنت طفل كما كنت تخاف ولا
وأنت مراهق كما كنت تخشى. ماتت وأنت رجل.
يتحمل الصدمة دون أن ينقصم ظهره. وهناك قبر
نبيل. قبر أخيك نبيل. الذي مات في الرابعة والثلاثين.
بعد معاناة مع مرض كريه. مرض في النفس. لم يعرف
الطب علاجاً له وقتها. ولا أحسب الطب يعرف علاجاً
له الآن. وكتبت عنه حين مات: "كان الألم رفيقك يا
نبيل. وكان ألمك فوق الألم يا نبيل. لأنه كان لك وحدك.
ينفرد بك. يخلو إليك. وماذا كنا نعرف عن معاناتك يا
نبيل؟ النظرة الساهمة، يا نبيل؟ الرحلة القصيرة في
عالم الوجوم؟ لن تفتح لنا صدرك يا نبيل لنرى أين
يسكن الألم. كما فتحته لنرى أين يسكن العطاء.
وكنت تعجب يا نبيل كيف لا تتمرد الحياة على الألم.
وكنت تخوض معركتك الصامتة مع الألم. عندما

ذهبت. وتركت الألم يتلصص في أرجاء هذا الكوكب. يحمل انتصاراته الرخيصة. نبيل الذي أحب زوجته حياة، حياة الثانيةً!. بعمق. وأحب ابنتيه لبنى وليلى بعشق.

لم يعرف السعادة الحقيقة إلا مع حياة ولبنى وليلى. ثم رحل. وبعده رحلت ليلى. بمرض لئيم ثانٍ. ماتت في الثامنة. كوردة لم تتفتح. كابتسامة لم تكتمل. كقصيدة لم تبدأ. وهي ترقد بقربه. في "مقبرة الشهداء" . وبقيت لبنى. بالمرض اللئيم نفسه. تصارعه في ملحمة رائعة. تخوضها باسم الحياة. بإيمان وتصميم. حتى أصبحت رمزاً للصمود في وجه الداء القاتل. رمزاً يبعث في المرضى الآخرين روح الأمل والرجاء. وبقربها أمّها حياة. التي مرت عليها أحداث جسام. فقدت أمها. وفقدت أباها. وفقدت زوجها. وبعده تزوجت أخاه عادل. أخاك عادل.

وأنجبا صبا. ويا الله! ماتت صبا في العشرين. وردة في أوج ريعانها. ابتسامة أحلى من الفجر. قصيدة قصيرة ساحرة. وحياة تتحمل وتتجلد. وتقف مع لبنى. ابنتها المحاربة الصلبة الجميلة. تعطي من روحها ومن جسدها. حتى أصبحت، بدورها، رمزاً للسخاء. وأنت، الآن في المقبرة. تشهد أختك حياة تغيب شيئاً فشيئاً حتى تختفي. وتعود أنت إلى بيتها. ترى وجوهاً لم ترها من سنين. قدامى الأصدقاء. الذين قد ينسونك في السراء. ولا ينسونك في الضراء. وتعود أدراجك إلى الوطن. إلى مجلس العزاء في الخبر. وترى وجوهاً لم ترها من سنين. شغلتك عنها الحياة التي تطحن وتدور. وشغلتها عنك. يجيء بها الوفاء إلى مجلس العزاء.

ومجالس العزاء في الخليج غريبة بعض الشيء. لا يتحدث فيها أحد عن الموت أو الفقد. أو الميت.

يتحدثون في التجارة وفي السياسة. ويتبادلون الإشاعات. ويسترجعون الماضي. وتجد من يبتسم. وتجد من يضحك. وفي يوم العزاء الثالث. وأنت في بيتك في البحرين، توشك أن تنام. يجيء الهاتف بنبأ غريب. يقول إن عادل، أخاك عادل، أصيب بإغماءة قصيرة صحا بعدها. لا يشكو شيئاً. ولا يشعر بما حدث. إغماءة؟! لم يسبق لعادل أن أصيب بإغماءة. وتحس بشيء حاد يطعن قلبك. وتتعوذ بالله من وساوس الشيطان الرجيم. وتقول لزوجتك إنك مرهق. مرهق جداً. تود أن تنام. ولا تود أن تتلقى مكالمة هاتفية من أحد. وتتقلب على السرير. ويأبى النوم أن يجيء. وبعد ساعة من الهواجس السوداء تقوم. تذهب إلى غرفة الجلوس. وهناك ترى الوجوه الواجمة. زوجتك وابنتك وأبناءك. ترى العيون الدامعة. ويسود الغرفة صمت. لا يتكلم أحد. يقبلون عليك. يقبلونك بصمت. بعيون

دامعة. وتصرخ أنت. بملء صوتك كما لم تصرخ عبر حياتك كلها:

"لا! لا! لا! لا تقولوا إنه مات! لا تقولوا إنه مات!" . ولا يترك الصمت لك مجالاً تفزع منه إلى الكذب، كما حاول، بلا جدوى، صاحبك القديم. ثم تهدأ وتستغفر الله، في سرك، من لحظة صراخك، لحظة ضعفك البشري. مات أخوك عادل، شقيقك. بعد أختك حياة. شقيقتك. بأيام خمسة. في الأسبوع نفسه! بدأ الأسبوع ولك شقيقة وشقيق. وانتهى الأسبوع وأنت بلا شقيقة ولا شقيق. وأنت في الخامسة والستين. تحمل ألف جرح. بعضها ينزف. وبعضها جف. وبعضها يتكون. وتشعر بإرهاق يملأ جسدك وروحك. تجد نفسك في الرياض. تجد نفسك في المسجد. تجد نفسك في المقبرة. تجد نفسك في مجلس العزاء.

تشد الأيدي على يدك. يقبلك المقبلون. ويعانقك

المعانقون. وأنت تقوم وتقعد. تروح وتجيء. تنام وتصحو. تتظاهر أن الذي رحل عنك لم يكن لصيقاً بقلبك. رفيق عمرك كله. تتظاهر أنك لا تكاد تعرفه. وتحس في القرار بيتم لاذع. وتحمد الله الذي لا يحمد على مكروه سواه. وأنت في الخامسة والستين. تشعر أنك غصن بقي بمفرده على الشجرة. طائر رحلت الأطيار وتركته عاجزاً عن اللحاق بها. بلا شقيقة. ولا شقيق.

كانت حياة نكبر عادل بسنة أو نحوها. لم تحسم هذه القضية قط. كانت مثار جدل لا ينتهي. كانا أقرب إلى التوائم. في الشكل وفي الطباع. كانت بينهما رابطة غامضة سحرية. كتلك التي تجمع بين التوائم. وكان بينهما حب عميق. كذلك الذي يجمع بين التوائم. ورحلا في الأسبوع نفسه. دون أن تتاح لهما فرصة للوداع. وتركاك بمفردك. تطوى السنين

وتنشرها. تذكر عادل. يوم كان، حسب تعبير أبي فراس الجميل، زين الشباب. وتذكر حياة، أيام المواسم الذهبية. وتتصيد الذكريات السعيدة. وما أكثرها!.

تتنفس في الأوقات الضاحكة. وما أكثرها!. قبل أن يعبث مرور السنين بالجسد والروح. قبل أن تمتلئ النفس بغبار الكآبة الرمادي. قبل أن يصبح كل يوم امتحاناً شاقاً. وتمسي كل ليلة محنة قاسية.

كان أخوك عادل في صباه فتى وسيماً بالغ الوسامة. ذكياً حاد الذكاء. متفوقاً في دراسته، متفوقاً في كل شيء. وكان رياضياً شاملاً. وكان قارئاً نهماً. وكان خطيباً ساحراً. وكان ذا موهبة نادرة في اللغات. قضى يوم كان في العاشرة بضعة شهور في الهند. وظل، حتى وفاته، يتقن الحديث بالأوردو. وكان يتحدث الإنجليزية ويكتبها بمقدرة لا تجدها عند حاملي الدكتوراة من جامعات بريطانيا وأمريكا. وكان

يستطيع أن "يمشي حاله" في الفرنسية التي لم يدرسها. وكان يحب الحياة، وتحبه. أقبل عليها وأقبلت عليه. وكان ظمآن لا يرتوي. نهماً لا يشبع. يعب الحياة عبّاً. ويكرعها كرعاً. قبل أن يتحول الفتى الوسيم إلى شيخ واجم تسكنه الهموم. مأساة عادل، واحدة من مآسيه العديدة، أنه ظل يرى في المرآة نفسه القديمة. الفتى الوسيم القديم. ظل، حتى موته، يأمل أن يرجع الفتى الوسيم. ويكره الحديث عن الأعمار. نشأ أخوك عادل. دون أن يشعر، محاطاً بالتدليل. يدّلله كل من حوله، حتى الذي لا يعهد عنهم تدليل. وظل في أعماقه نهم للتدليل. يحاول، دون أن يشعر، أن يعوض عنه، يتقمص شخصية الرجل "الماشو" الرجل / الرجل الذي يتفوق على كل الرجال. في كل شيء. الذي لا يؤثر فيه شيء. الذي لا يحس بالألم. وكانت تمثيلية متقنة. خدعت الكثير. خدعت الجميع. ولكنها لم

تخدعك أنت. ربما لأنك، مثله، نشأت محاطاً بالتدليل، متعطشاً إليه. الفرق بينكما أنك كنت تشعر بما كان يحدث، وتقاومه، وهو لم يشعر، ولم يقاوم. والأهم من ذلك ان المشاكل لم "تتعشّقك" - حسب تعبير أحد الأصدقاء - كما تعشّقت أخاك. والمواسم الصعبة لم تمتحنك كما امتحنته. كان يبدو، من الخارج قوياً كالصخر. وأنت تعرف انه كان هشاً من الداخل. عندما ماتت زوجته، ملَك، ذهب معها شيء من عمره. ولكنه رفض أن يعترف. رفض أن يبكي . ظهر صامداً صلباً قوياً أمام العيون. وعندما ذهبت ابنته صبا، أحلى الصبايا، في ميعة الصبا أوشك أن ينهار. ولكنه تراجع في آخر لحظة. تذكر صورة الرجل/ الرجل. وقاوم عواصف الحزن في أعماقه بغمامات باهتة من الجلد. لم يكن أخوك عادل رجلاً لكل المواسم. كان رجل المواسم الطيبة. التي تعطي

وتغدق. وفي هذه المواسم تفتحت مواهبه وازدهرت. وفتن به كل من حوله من رجال ونساء. ولكنه لم يكن رجل المواسم القاسية. وعندما جاءت هذه المواسم لم يعرف كيف يتعامل معها. المواسم التي لا تدلله، ولا تعطيه، ولا تجامله.

فرّ منها إلى الإنكار. ثم إلى الأحلام. وسرعان ما اختلطت الأحلام بالأوهام. وفي أيامه الأخيرة كادت الأوهام أن تتغلب على الأحلام.

كان الرجل / الرجل ، في الحقيقة طفلاً / طفلاً. بكل حسنات الطفل، وكل عيوبه. أخبرتني ابنته مها، بعد أن ذهب، أنها فوجئت بعشرات الصور، كلها صور صبًا، في أدراجه. كان يخفيها هناك، ويراها حين لا يراه أحد. إلا أنني لم أُفاجأ. كنت أدرك، دون كل من حوله، كم كان ضعيفاً، وكم كان قابلاً للكسر. وتنتهي أيام العزاء. وفي البحرين يقول لك ابنك

سهيل "كنت أتوقع أن تتأثر أكثر مما تأثرت" صدقت يا بني! وماذا قال ابن الرومي؟ "أمرُّ البكائين البكاءُ المولّجُ" . وأنت تلعق دموعك وجروحك. لا خوفاً من الشماتة. بل إيماناً بالله. واستسلاماً لقضائه. ورضا بقدره.

وتسير مع الحياة التي تسير، الحياة التي لا تتوقف لموت أحد. تعود إلى روتينك اليومي. العذاب اليومي. الذي يحسدك عليه كثيرون. ويكرهك بسببه كثيرون. ويحبك من أجله كثيرون. وفي العذاب اليومي لابد أن تبتسم حتى عندما تهطل في قلبك سحائب الدموع. لابد أن تكون مهذباً حتى عندما تصطدم بمن ينتشي بالوقاحة، لابد أن تسمع ما يهمك ويغمك. وتقرأ ما يهمك ويغمك. وتوشك أن تفقد الأمل. توشك أن تترك العذاب اليومي لمن يعده نعيماً يومياً. ولكنك لا تفعل. يشدك إليه شيء كالواجب. أو هو الواجب.

وكالحب. أو لعله الحب. وهل واجب بلا حب؟ وهل حب بلا واجب؟ وفي صباك قرأت جملة حكيمة لم تنسها حتى اليوم: "الحب هو أن تحب ما لا يحب، وإلا فهو ليس بفضيلة". تعود، إذن إلى عذابك اليومي. وتسير مع الحياة التي تسير. وذات صباح تجيئك، على غير موعد، رسالة هاتفية حزينة. مات مصطفى! مصطفى أخوك! لم يكن مصطفى شقيقك ولكنه كان أخاك. وكان بينكما فاصل كبير من السنين. ولم تكن تراه كثيراً. وعندما تراه لم تكن الزيارة تطول. ويهزّك نبأ وفاته. رغم علمك أنه كان مريضاً. عانى جلطة إثر جلطة، وكان يعيش في عزلة. مع أمراضه، ومع همومه، لا يحب أن يقتحم عليه أحد عزلته. وأخوك مصطفى، كأختك حياة, فقد الرغبة في الحياة عندما فقد ابنه مازن. كان مازن فتى بهياً. وكان يصر على أن يدخل كلية الأمن الداخلي. وكان له ما أراد.

وتخرج ضابطاً فارعاً مشرف الطلعة. يعشق عمله. وذات يوم، منذ سنوات، كنت في جدة. في مهمة رسمية. كنت ترافق رئيس الوزراء البريطاني. في مدينة جدة القديمة. في بيت من البيوت التراثية. عندما جاء ضابط حيّاك. ورددت تحيته. ثم اقترب منك. وقبلك. وتقبلت القبلة بشيء من الذهول لاحظه الضابط الشاب. وقال: "عمي! ألا تتذكرني؟ أنا مازن" ! أنت مازن؟! "المعذرة، يا بني! لم أرك منذ مدة طويلة".

ومرت سنة أو سنتان. وذات صباح في لندن جاءتك، في الصباح الباكر، مكالمة عاجلة. وماذا قال الجواهري؟ "والله! لو كان خيراً أبطأت بُرُدًا!" مات مازن! مازن؟! كيف؟! كيف؟! في حادث سيارة. أواه! هذه السيارات/ المقاصل. التي تهوي على الرقاب كل لحظة وتصرخ طالبة المزيد. يومها، ودع اخوك مصطفى الحياة واستسلم لجلطة بعد جلطة.

واعتزل الناس، شيئاً فشيئاً. وكنت عندما تزوره تشفق وتتألم. وكانت الزيارة تحرجه. ثم انقطعت عن الزيارة. واكتفيت بالسؤال عن بعد. ويالهذه الحياة العجيبة. التي تضع السدود والحدود بين الأخ والأخ والصديق والصديق. عندما علمت بوفاته قفزت، كعادتك، إلى الماضي. تتذكر طيبة قلبه. وتتذكر نوادره وقصصه الضاحكة. وما أكثرها. تتذكر شرود ذهنه الذي كان يبالغ فيه لتسلية نفسه، وتسلية الآخرين. كان إنساناً هيناً ليناً. وكان مسالماً وديعاً. لا أحسبه آذى أحداً. ولا أحسب أن أحداً آذاه. مشى على الأرض هوناً. ومضى بسلام. وها أنت ذا في مجلس العزاء، للمرة الثالثة. خلال أسابيع معدودة. مرة ثالثة مع طقوس الدفن، والعزاء، والوجوه الي لا تراها إلا في مواسم الحداد. الأصدقاء القدامى. الذين عبثت بهم السنين، كما عبثت بك. وتعود من جديد إلى عذابك

اليومي، المكتب الذي بدأت تنفر منه. العمل الذي لم يعد متعة، تعود إلى تلك الغابة العجيبة، المملوءة بالعجائب.

كأنك كما قال صاحبك القديم "عجب في عيون العجائب". غابة النفس البشرية التي استعصى فهمها على اذكى الحكماء. ترى الرجل الذي يبتسم لك ابتسامة كبيرة. بعد أن سقاك شربة عسل ممزوجة بالسم. تتظاهر بالسعادة وأنت تشربها. ترى الرجل الذي يعانقك. وأنت تعرف أنه كان يشتمك، وراء ظهرك، قبل دقائق. وتعانقه. تجزي، كما قال صاحبك القديم/ "على ابتسام بابتسام". ترى الرجل الذي يكرهك بتطرف. وترى الرجل الذي يحبك بغلو. وأنت تعرف انك لم تفعل معشار ما يتصوره الذي يكرهك من شر. ولا معشار الذي يحبك من خير. أنت كالبقية. كالذين يحبونك ويكرهونك. تحمل نصيبك

من ضعف البشر ومن قوة البشر. تمتزج فيك النّرجسية بالتواضع. والأنانية بإنكار الذات. والبخل بالكرم.

وأنت تعرف من نفسك ما لا يعرفه الآخرون. وإن عرفوه لن يصدقوه. وإن صدقوه لن يتذكروه. ولن يذكروه. تعرف أنك، في عمق أعماقك، خجول إلى حد محرج. وأنك في، روحك الخفية، انطوائي إلى حد مزعج، وأنك بين الجموع، تشعر بالاختناق, ومن الذي سيصدقك؟ هل يصدقك الذين قرروا أنك لا تستطيع أن تعيش بلا أضواء ولا جموع؟ أم يصدقك الذين قرروا أنك تعشق المواجهة الدامية والصراحة الجارحة؟ أم يصدقك الذين يعتقدون أنك لا تسير من محفل إلا إلى محفل ومن احتفال إلا إلى احتفال؟ من سيصدق أنك، بعد عودتك من لندن، تعيش في ما يشبه العزلة؟ وأنك لم تزر المطاعم سوى أربع أو خمس مرات (أو ست على

الأكثر)؟ وأنك لم تقبل دعوات لتكريمك إلا في حالات نادرة لم تتجاوز أصابع اليدين؟ عشر دعوات في أربع سنوات ؟! وفي مجتمع الضيافة يبدو سلوكك هذا غريباً بعض الشيء. عدوانياً بعض الشيء. في مجتمع الضيافة لا يفرق الناس بين الرجل الكريم والرجل المضياف.

وقد كتبت ذات يوم، مقالاً قصيراً عنوانه "الطائف الحصافة في التفرقة بين الكرم والضيافة". وقوبل المقال بكثير من الاستياء. في كثير من الأوساط. في مجتمع الضيافة يعبر الناس عن عواطفهم كلها بالطعام. موائد دسمة في الأفراح. وموائد دسمة في الأتراح. وموائد للترحيب. وموائد للوداع. موائد لو اختفت من حياة الناس لحاروا ماذا يفعلون بحياتهم. وأنت تنفر من هذه الموائد. بأنواعها. متعللاً بألف عذر. ثم تستغرب عندما يقول من يقول إنك مغرور. وهل

هناك أشد غروراً من الرجل الذي يرفض أن "يستعزم"؟ أو أشد بخلاً من الرجل الذي لا يعزم؟ بيل جيتس تبرع بعشرات البلايين، بالباء لا الميم، من الدولارات للأعمال الخيرية. ومستثمر أمريكي آخر، لم يسمع أحد به، تبرع بقرابة أربعين بليون دولار للأعمال الخيرية. رغم أنه لم يروِ عن أيهما أنه ذبح لأحد بقرة. أو عجلاً . أو ديكاً رومياً.

ومجتمع الضيافة لا يحب هذه القصص. يحب "سواليف" الكرماء الذين يحيونك بالخراف والجمال. وأنت الآن، شئت أم لم تشأ، مغرور. لأنك لا تفتح ديوانية، ولا ترتاد الديوانيات. ولا تقيم "ربوعية" ولا تحب زيارة "الربوعيات". أنت تحمل الكثير من التقدير لمن يفتح ديوانية ويرحب بالقادمين. وتحمل الكثير من التقدير للذين يزورون الديوانية. ويعيدون شيئاً من الترابط إلى مجتمع أصبح يتسم بالتباعد. وأنت تذكر

ما تذكر هنا في معرض نقد الذات لا الزهو. أنت تفضل أن تقضي أوقات فراغك كلها مع كتاب. أو مع صديق يشاركك النفور من الموائد الدسمة. أو مع فيلم وثائقي. أو فيلم رعب ينسيك رعب الحياة الحقيقي. لا يعرفك الآخرون حتى الذين يعتقدون أنهم يعرفونك. لسبب بسيط. هو أن حياتك العامة تناقض تماماً حياتك الداخلية. "الجوانية" كما كان يقول توفيق الحكيم. حتى إنك لتعتقد، أحياناً، أنكما رجلان منفصلان. رجل للتصريحات والاحتفالات والمناسبات والقرارات والمواجهات. ورجل للوحدة والهدوء والقراءة والكتابة والتأمل. لا أحد يعرفك حق المعرفة سوى زوجتك. التي تستطيع قراءتك كما تقرأ كتاباً مفتوحاً على مصراعيه. ترى الخوف المختفي وراء الثقة. وترى الأسى المنزوي وراء الضحك، وترى القلق الذي يرتدي ثوب الاعتداد. تعرف أسماء الأنهار التي

تجري في أضلاعك، أنهار الحزن. وتعرف أسماء البحار التي يطفو عليها قلبك، بحار الألم . ولكنها تتظاهر أنها لا ترى ما ترى. تعاملك كما لو كنت ذلك الشاب المتفجر حيوية ونشاطاً وأملاً. الشاب الذي أحبها وأحبته. وتزوجا قبل أربعين سنة إلا قليلاً. لا! لم تعد ذلك الشاب. ولن تخادع نفسك كما كان أخوك عادل يفعل. أنت تنوء بالسنين. ولا تحاول إنكار عددها. تنوء بالسنين التي تلتصق بالسبعين بالتقويم الهجري وتقترب منها بالتقويم الميلادي. ويحسبها الجسد بلا حاجة إلى تقويم. تحس وطأتها في كل خلية من خلاياك. وتشعر بحاجة إلى الراحة بعيداً بعيداً. بعيداً عن كل شيء. عن الذين يتملقونك. والذين يشتمونك. عن الذين يحبونك. والذين يكرهونك. بعيداً عن الإعلام الذي يقال إنك تعشقه ويعشقك. على سفح جبل بعيد. على شاطئ بحيرة بعيدة.

على ساحل محيط بعيد. تقول لزوجتك: "هل تدرين ما أنوي أن أفعل بعد أن أتقاعد؟". ولا تقول هي شيئاً. وتقول أنت: "سأختار جزيرة صغيرة. صغيرة جداً. من الجزر اليونانية على الأرجح. واشتري أرضاً صغيرة أبني عليها بيتاً صغيراً شبيهاً بالصومعة". وتقول هي: "فكرة جميلة! ولكن كيف ستقضي وقتك في الصومعة؟" وتقول أنت: "سوف أتأمل، يا عزيزتي. أتأمل الشروق والغروب. أتأمل المواسم المتعاقبة. أتأمل الألوان والظلال. وأتلذذ بالصمت". وتقول هي: "فكرة جميلة. متى نبدأ البحث عن هذه الجزيرة؟" وهي تعرف أنك ستعود إلى الطاحونة. إلى العذاب اليومي. وها أنت ذا تعود. وتقول للرجل الذي تحبه كثيراً: آن أن أستريح. أن أقضي بقية أيامي مع أحفادي. اصطاد السمك وألعب وأضحك" ويقول: "هل سيشغلك صيد السمك عن هموم الوطن؟ وهل

تستطيع أن تضحك في واقع محزن؟ وهل تتقاعد المسؤولية مع تقاعدك؟" وتصمت لا تحير جواباً. من الذي يستطيع أن يتنبأ بما يمكن أن تفعله، أو لا تفعله، الطبيعة البشرية؟ رحم الله الملك خالد ابن عبدالعزيز. كان يقول: "يجيء المسؤول من هؤلاء يقول: "تعبت! اعفوني! اعفوني!" ونصدقه ونعفيه. وفجأة يبدأ في الحنين إلى المنصب حنين الناقة إلى فصيلها". تتلقفك الطاحونة في شوق. تقذف رزمة بعد رزمة من الأوراق في وجهك. الأوراق!

رحم الله الأمير ماجد بن عبدالعزيز كان يقول: ورق! ورق! يمطر السقف ورقاً. وتنبت الجدران أوراقاً. وتطلع الأوراق من المكتب. ماذا ستفعل بلا أوراق؟! "ويجيء الهاتف بالمكالمة العاجلة. حالة أخيك فهد تتدهور. تتدهور بسرعة. وتشد الحقائب استعداداً للسفر إلى البحرين. ثم تجيء المكالمة النهائية. مات! مات أخوك

فهد. ثلاثة إخوان وأخت يموتون خلال شهور قليلة. الحمد لله . لله ما يعطي ولله ما يأخذ. أخوك فهد كان، بدوره، يكبرك بكثير. كان بالإمكان أن تكون ابنه, وهذا الفاصل الزمني كان يفرض حاجزاً من الهيبة. عانى أخوك فهد في صباه من شظف العيش. وعرف التقشف، أحسبه أحب التقشف. في مسلكه وأسلوبه. وكان منضبطاً شديد الانضباط. دقيقاً مبالغاً في الدقة. منظماً يعشق النظام. لا يمكن لأحد أن يزعم أن أخاك فهد تأخر في سداد قسط أو الوفاء بدين أو أخلف وعداً التزم به, وكان يتوقع الانضباط من الآخرين. كنا، أيام الطفولة، لا نجرؤ على الاقتراب منه, لا نقترب من عالمه. ننفر بعض الشيء من الشدة التي كان يأخذ بها نفسه. والتي تنعكس في تعامله مع الآخرين؟. ثم حدث شيء غريب، شيء مفرح، شيء مدهش لأخيك فهد وهو ينتقل إلى الكهولة. زالت

هالة الشدة التي كانت تحيط به. وخفت حدة الانضباط. تساقطت الحواجز بينه وبين إخوانه، واكتشفنا الإنسان الطيب القابع وراء الرجل المتقشف، الإنسان الذي نذر حياته لأولاده. الذي حرم نفسه من أشياء كثيرة كي لا يحرمهم من شيء. كشف لنا عن روحه. ودخلنا عالمه. وسررنا بما رأيناه داخله. أخبرني سهيل أنه حين كان في العاشرة أو نحوها تحداه عمه فهد أن يسابقه. وقال سهيل انه قبل التحدي واثقاً من أنه سيفوز. وفي آخر لحظة قال له عمه أن السباق يختلف قليلاً عن السباق المعهود. السباق، هذه المرة، سيتم جرياً إلى الوراء. وقبل سهيل التحدي. وسقط بجدارة. وفاز عمه بجدارة. اضحك كلما تصورت المنظر. الجري إلى الوراء! تأتي السنين بالغرائب. تضفي الكهولة على البعض وقاراً مصطنعاً وسمتاً زائفاً. وتزيح عن البعض وعثاء

الوقار والسمت. وأنت سعيد بأخيك الذي أعاد اكتشاف نفسه. وأعدت أنت اكتشافه, الرجل الذي يعشق أولاده وأحفاده. ويقضي معظم وقته معهم. ثم انتقل من الكهولة إلى الشيخوخة.

وجاءت الأمراض حليفة الشيخوخة العتيدة.وبدأت الكآبة تتسلل، مع المرض، إلى روح أخيك فهد. الكآبة مرة أخرى! الكآبة مرة عاشرة! لو كانت الكآبة امرأة لقتلتها جزاء وفاقاً على ما قتلته من رجال ونساء. ثم أصيب بداء عضال. يعجز الأعضاء عن الحركة واحداً فواحداً. في شهوره الأخيرة لم يكن بوسعه أن يحرك شيئاً سوى عينيه. لا يعلم إلا الله ما عاناه من عذاب. وفي الأسابيع الأخيرة لم يملك من وسائل التعبير سوى الدموع. التي تسيل من عينيه كلما رأى أحداً يحبه بعد غياب. ثم جاءت النهاية. رحمة الله التي تضع حداً للعناء. "كفى بك

داءً أن ترى الموت شافياً!، كما قال صاحبك القديم، الذي لم يمت من الحمى التي قتلت جدته، والتي أبدع في وصفها حين زارته. ولكنه مات مقتولاً في معركة غير متكافئة بين القلم والسيف، واللسان والرمح. تعود، من جديد، إلى الطقوس الحزينة. مقبرة المنامة مليئة بالرجال الأوفياء. أوّاه! من تبقى من إخوانك الذكور؟ لم يبق سوى أخيك إبراهيم الذي يسير بقربك، الآن، في المقبرة، وتسأله: "ترى من سيكون عليه الدور في المرة القادمة؟" . وينظر في الفضاء نظرة حزينة، ولا يجيب. وسوى أخيك خالد، الذي أبقاه المرض في الرياض. وتشعر أثناء العزاء بآلام ممضّة. تتحملها على مضض. ثم تتطور فتلجئك إلى الفراش.

ويجيء الطبيب، وأكياس الأدوية. وقبل أن تشفى من العلة تنتابك علة أخرى. وتنتقل بين أجهزة

الفحص الحديثة والأطباء. وترجع محملاً بالأدوية. ثم تباغتك علة ثالثة. وتشخيص جديد وأدوية جديدة. وتعرف أنت مشكلتك. تعرف أن المناعة الجسدية لا تستطيع مقاومة الأمراض بلا مناعة نفسية. وتدرك أن جراثيم الكآبة بدأت تتسلل إلى نفسك. وأن الجسد تلقى إشارة من النفس أضعفت مناعته. عندما يحدث شيء للمناعة يمكن أن يحدث للجسد أي شيء. تصاب بالأنفلونزا، في غير أيامها. يعاودك داء قديم كنت تظنه مات. تستيقظ خلية نائمة من الجراثيم ـ كما تستيقظ الخلايا الإرهابية النائمة ـ وتبدأ نشاطها. وفي أيام العلة. وأنت بين الفراش ومقعدك أمام التلفزيون. تتذكر أشياء كثيرة كنت نسيتها. تسترجع تاريخ" ستّك سعاد". ستّك ولدت في مكة المكرمة في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي. من أسرة معروفة تسمى الكاتب. وجاءت

التسمية من كون الاسرة توارثت الكتابة لأشراف مكة المكرمة. ويبدو أن الكتابة كانت شيئاً بين الحجابة والوزارة.

كانت ستّك، كما يبدو من صورها القديمة، فتاة حسناء، وجاءها ذات يوم خطيب وسيم. شاب يعود أصله إلى تركيا. بعد ذلك بسنين كان أخوك نبيل يمازح ستّك: "لو كنت أعرف العروق التركية في بدني لقطعتها". كان نبيل عروبياً متطرفاً، ولكنه كان، هنا، يعابث ويداعب. تزوجت الفتاة الحسناء الفتى الوسيم، الذي لو عاش في أيامنا هذه لاستحق لقب "الولد اللاعب" ولا ينبغي أن تقول أكثر من هذا. فأنت مأمور بذكر محاسن الموتى. والميت جدك. حسناً! تعلقت سعاد بزوجها "الولد اللاعب" . الذي كان يعشق القنص واللهو. وكان مبذراً متلافاً. ينفق ما لديه ويعود إليها. وتعطيه مما ورثت عن أبيها، وقد

ورثت الكثير، حتى أعطته كل شيء، دون أن تتذمر أو تتأفف.

كانت تحبه، ومع الحب يجيء الوفاء والولاء والسخاء. ورزق الزوجان بنتاً واحدة، هي فاطمة، أمك رحمها الله! ما الذي جمع فتاة "مكاوية" صغيرة بكهل "شرقي" في الخمسين؟ القدر!

حدثك أبوك أن إقامته ذات سنة طالت في الحجاز، في معية الملك عبدالعزيز، رحمه الله! وكان أبوك يعيش بمفرده. ونصحه من نصحه باللجوء إلى الحل الذي كان وقتها مقبولاً ومعقولاً: الجارية التي تغني - بعض الشيء! - عن الزوجة. وجاءت الجارية ولم تطل إقامتها. حدثك الدكتور مدحت شيخ الأرض، رحمه الله!، أنه كان المسؤول عن زواج أبيك بأمك. وقال إنه كان يعرف عائلة أمك ويعرف أباك. وسعى لترتيب الزواج. كان هناك شيء من التردد من جانب أسرة أمك.

التي كانت تتخوف مغبة زواج فتاة في السادسة عشرة برجل في سن أبيها. وكانت تخشى أن يذهب الزوج "الشرقي" بزوجته شرقاً. واشترطت عليه الأسرة أن يبقيها في الحجاز. وقبل الشرط. وكنت تداعب الدكتور مدحت كلما لقيته بقولك" : أنت سبب "النكبة"! والتزم أبوك بالشرط. وتم الزواج في سنة ١٩٣٠م. وبعدها بسنة ولدت حياة. وبعد ميلادها بسنة ولد عادل. وبعد ميلاده بثلاث سنوات ولد نبيل. ولدوا، جميعاً، في مكة المكرمة. ثم تغيرت الظروف واضطر أبوك إلى السفر. وأخذ أمك معه. من مكة المكرمة إلى الهفوف. حيث ولدت انت سنة ١٩٤٠. وبعد ميلادك بأقل من سنة توفيت أمك في الثامنة والعشرين بالتيفوئيد. في الأحساء التي لم تكن أمك تحبها، ولم تكن أمها تحبها. وفي السنة نفسها مات جدك. فقدت ستّك سعاد زوجها وابنتها الوحيدة في

سنة واحدة. موسم الموت!. والذين عرفوا سعاد في تلك الفترة يزعمون أن شعرها أبيضّ كله، فجأة، خلال أيام. وأنت لا تصدّق ولا تكذّب. وبعد وفاة أمك نسيَت ستّك سعاد موطنها الأصلي. نسيت ضيقها بالأحساء. نسيت معاناتها مع "الشروق" قررت أن تكرس بقية عمرها للعناية بأولاد ابنتها الراحلة الغالية, وكان أصغرهم - بطبيعة الحال - أجدرهم بالعناية. ونشأت لا تعرف أماً سوى "ستّي!". التي تشفق كما تشفق الأم، وربما أكثر. وتحنو كما تحنو الأم، وربما أكثر. وتدافع عن "الولد اليتيم". ظالماً ومظلوماً. كانت ستّك سعاد مثالاً نادراً للوفاء والولاء. مع زوجها، ومع ابنتها، ومع أحفادها.

وتحولت إلى "أم عادل". الكنية التي يناديها بها الجميع. والتصقت بإخوانك وبك حتى موتها. كانت إمرأة طيبة. وكانت تتمتع بحس دعابة متطور جداً.

ورزقت الكثير من التسامح. وكانت تحسن القراءة دون أن تحسن الكتابة (باستثناء كتابة الأسماء!). وكانت تقرأ القرآن الكريم. وكانت تقرأ الروايات والقصص. ومنها سمعت عن "حمزة البهلوان"، و"سيف بن ذي يزن"، و"الأميرة ذات الهمة"، و"تغريبة بني هلال الكبرى". وهي التي علمتك كيف تكتب اسمك قبل أن تدخل المدرسة. وكانت تقرأ لك الكتب . ثم أصبحت تقرأ لها الكتب . ولا شك أنك أخذت منها الكثير . غير الجينات . هي التي حببت إليك القراءة و أدخلتك عالم الروايات . و هي التي أعطتك دروساً في التسامح . ولا شك أنك دون أن تشعر تشربت شيئاً من قلقها . وتوجسها حتى عندما كبر أولادك . وأصبح لهم أولاد . تظل فريسة المخاوف . حتى يصل المسافر منهم إلى غايته . وحتى يشفي المصاب بنوبة خفيفة من الزكام من نوبته . ثم انتقلت العائلة إلى

البحرين . في منتصف الأربعينيات . و أعد أبوك سكناً منفصلاً لإقامتك مع أخوتك ومع ستّك سعاد. ويلاصق السكن بيت آخر. تقيم فيه مع زوجة أبيك أم خليفة،رحمها الله! و أختاك مريم رحمها الله، ونورة، مد الله في عمرها، وأولادهما وبناتهما. وأمام البيتين الصغيرين كان هناك بيت كبير يسمى "البنك" لأنه كان مقراً لبنك ذات يوم. يقيم فيه أبوك مع زوجته، أم مصطفى، رحمها الله!، وفي البيت أجنحة، إن جاز التعبير، يقيم فيها إخوانك مصطفى وابراهيم وخالد، الذين تزوجوا مبكراً. مع زوجاتهم. وحدها زوجة أبيك الثالثة، أم نعيمة، كانت بعيدة عن موطنها الأصلي، في الهفوف. حيث نشأت أختك نعيمة. لا تراها ولا تراك إلا في المناسبات. ويالهذه الحياة التي تفرق بين الأخ والأخت!. وعلى مرمى حجر، كان يقيم أخوك خليفة، مع زوجته أم سعد، وأولاده

وبناته. وعلى مرمى حجر آخر، كان يقيم أخوك فهد، مع زوجته أم فائز، وبناته. وكان هناك مطبخ مشترك تنطلق منه كل صباح وجبات الإفطار المتواضعة، أقراص الخبز وأباريق الحليب والشاي، إلى كل بيت. وفي كل ظهر وجبات الغداء البسيطة، قدر الرز، وقدر "الصالونه"، الخضار باللحم، وفي كل مساء وجبات العشاء (التي لا تختلف عن وجبات الإفطار). وعلى هذا المجتمع العائلي الواسع تفتحت عيناك، واستيقظت ذاكرتك من سبات استغرق سنواتك الخمس الأولى في الهفوف. سقطت هذه السنوات من ذاكرتك. وكأنما بسحر ساحر. لا تذكر الآن، ولم تذكر قط، شيئا، أي شيء، عن البيت الذي ولدت فيه. وعندما عدت إليه، بعد فراقه بسنين، شعرت أنك تدخله لأول مرة. وذكرياتك عن طفولتك مستقاة كلها من حكايات الآخرين. يا الله! هل هذه مؤامرة من

العقل الباطن؟ الذي يحاول دفن الذكريات الشقية واستبقاء السعيدة، وينجح حيناً، ويفشل أحياناً؟ لم تكن الفترة التي قضيتها في الأحساء سعيدة. كنت بلا أقران. بلا أصدقاء. بلا زملاء. وكان الفارق الزمني بينك وبين إخوانك يبعدك عن عالمهم. كان إخوانك يتذكرون الأحساء بشيء من الشوق، يتحدثون عن البساتين التي كانوا يزورونها بانتظام. عن الحمير التي يركبونها بين الحين والحين. عن العصافير التي يصطادونها "بالنبالة". عن مغامرات صبيانية شيطانية لا تنتهي. وأنت لا تذكر من ذلك كله شيئاً. أي شيء! عرفت فيما بعد، أنك كنت تقضي معظم أوقاتك تلعب بعدة نجارة أحضرها لك أبوك من إحدى سفراته. عدة نجارة؟! وما لك اليوم تعجز عن دق مسمار في جدار؟ وكنت تلعب مع الحمائم، تطعمها وتراقبها وتقلد أصواتها. طفولة مسالمة وديعة

منطوية منزوية. وماذا حدث في البحرين؟ دخلت، في السادسة أو قبلها بقليل. مرحلة جديدة مثيرة. تذهب، بمفردك، إلى المدرسة. وتلعب، عندما تشاء، في الشارع، أو في "البراحة" التي لا تبعد كثيراً عن البيت. وحولك أقاربك من سنك. وحولك كثير من زملاء الدراسة. تذكر، إلى الآن، التفاصيل كلها: "خريطة" منزلك، و"خريطة" كل منزل من المنازل التي كانت العائلة تسكنها. تذكر تفاصيل الحي، وتفاصيل الطريق إلى المدرسة، وتذكر الجيران.

ذات يوم قال لك فواز، ابن اخيك فهد وزوج ابنتك يارا،"عمي! أبي وكل أعمامي يجيدون لعبة "البنج بونج" ويكتبون بخط جميل، ما السبب"؟ حسناً! في "البنك". البيت الكبير، كانت في الدور الأرضي قاعة كبيرة. مليئة بالكتب والمجلات. وفي منتصفها طاولة "بنج بونج" وكانت الطاولة في حال استعمال شبه

دائم، نهاراً ومساء، يستعملها الكبار والصغار حتى أتقن الجميع اللعبة. لم تكن تعرف أيامها، أحداً من أقاربك، كباراً وصغاراً، لا يجيد اللعبة. والخط! كان أبوك يكتب بتدفق ويسر. إلا أن خطه لم يكن جميلاً. حقيقة الأمر أن خطه كان يحتاج إلى من "يفسره". وكان أخوك عادل أمهر "المفسرين" لهذا السبب، ربما، حرص أبوك على أن يتعلم أبناؤه الخط الجميل. كان يحرص على جمال الخط حرصه على النجاح. وعبر سنتين أو ثلاث، كان هناك مدرس خاص للخط يجيء إلى المنزل يومياً. (واحسرتاه! مع الحاجة المتزايدة إلى الكتابة السريعة جداً تطاير خطك الجميل ذرات هباء!)

أختك حياة، وزوجها وأولادها، كانت تقيم في "جناح" في بيت عمك عبدالعزيز، رحمه الله، "البيت العود". ذات يوم، كانت الأسرة كلها، أبوك وأعمامك

وأولادهم وزوجات أولادهم، تعيش في " البيت العود " وقبل ذلك وبعده. كانت الأسرة كلها تقيم في بيت الرفاع. كان هذا كله قبل ولادتك. ثم وقعت حادثة أليمة في تاريخ الأسرة. سنة "القسمة" . وهي تعبير مهذب عن الانفصال. صفيت الشركة الواحدة. واستقل كل من أبيك وأعمامك بأملاكه وأعماله. وانفصلت المساكن. تتخيل، بين الحين والحين، الفترة التي كان فيها بيت واحد. وملحقاته، يضم الأسرة كلها، العشرات من الآباء والأبناء والأحفاد والعاملين والعاملات!. كنت تسمع أن طعام هذا الجيش الصغير كان يحتاج إلى مطبخ كبير منفصل يستهلك كل يوم كيسين من الرز وخروفين (أو ما يعادل الخروفين من أسماك). يتغير الزمن، وتتغير المواسم. وتتغيّر المطابخ. بقي بيت الرفاع فترة طويلة ملكية مشتركة للعائلة كلها، أبيك وإخوانه. الشيء الوحيد الذي لم

يقسم. حتى خرج من ملكيتها في الستينيات، وكان بيت الرفاع جزءاً لا يتجزأ من طفولتك، وفي ليالي الصيف، كنت، بصحبة أحد إخوانك الكبار والكثير من الأقارب من أقرانك، تقضي ليلة أو ليلتين في الأسبوع بقربه. على "دكة" بقرب "المجلس"، دار الضيافة. كان الجو في الرفاع جميلاً مهما كانت درجة الحرارة. في المنامة، كانت هناك الرطوبة الخانقة. أما في الرفاع فكان هناك الهواء العليل. وعلى "الدكة" قبل النوم يحلو السمر. ومعظمه عن أحاديث الجن. أمام "الدكة" على بعد ثلاثمائة متر أو نحوها، كان هناك مرحاض، لم يستعمله أحد من سنين طويلة، وكانت أحاديث السمر تؤكد، ليلة بعد ليلة، أن الحمام كان "مسكوناً". وكان الذين يكذبون الخبر يجدون واحداً أو أكثر من الحاضرين يطلب منهم أن يذهبوا إلى المرحاض. والغريب أن أحداً لم يقبل التحدي. ظل

الجميع، المصدقون والمكذبون، يتجنبون المرحاض "المسكون". ولم يكن من الغريب أن تتحول أحاديث الجن إلى أحلام في المنام. وأن تختلط الأحلام بالحقيقة. في الصباح كان هناك، دوماً، من يزعم أنه أفاق، في منتصف الليل ليجد حماراً يتمشى على "الدكة".

حماراً من حمير الجن. وكان السؤال جاهزاً: "وكيف عرفت أنه من حمير الجن وليس حماراً عادياً؟" وكان الجواب جاهزاً، وهل يستطيع حمار عادي تسلق عدة درجات عالية ليصل إلى "الدكة"؟ وكان هناك دوماً من يزعم أنه أفاق، في منتصف الليل، ليسمع أصواتاً مخيفة تنبعث من المرحاض، وكان هناك، دوماً، من يزعم أنه أفاق في منتصف الليل عندما بدأت الحجارة تسقط على فراشه، حجارة الجن. ورغم هذه المزاعم، وربما بسببها، كنت تتطلع بشوق إلى أسمار "الدكة" والليل المملوء بالجن. وكنت تعشق أن تتمشى داخل

البيت الكبير، مع أحد الكبار. الذي يشير إلى "الليوان" الذي كان يسكنه أبوك وأولاده، وإلى بقية "اللواوين" التي كان يسكنها أعمامك وأولادهم. الغريب رغم بقاء البيت مهجوراً عقوداً طويلة، أن شجرة واحدة، من أشجار "الكينا" ظلت خضراء مزدهرة، بلا سقيا كأنها رمز من رموز الوحدة يأبى أن يموت (١). تتمنى، اليوم، لو تستطيع أن تكتب رواية عن الحياة اليومية داخل البيت الكبير. إلا أن معلوماتك لا تسعف، وذاكرة أقاربك ممن عايشوا تلك الفترة معايشة شخصية لا تسعف. لم تر موسم الوحدة العائلية الكاملة التي انتهت بالقسمة قبل ميلادك. ولكنك شهدت موسم الوحدة العائلية الجزئية. كنت تتنقل من بيت إلى بيت، بسهولة وبلا استئذان. وكذلك كان يفعل أقرانك. لم يكن هناك شيء يسمى "خصوصية" لا

(١) أنظر الصورة في الغلاف

في القواميس ولا في الحياة اليومية كل شيء كان يدور في أي بيت من البيوت، كان سراً يعرفه الجميع.

لا غرابة، في ظل هذه الأوضاع، أن تنتشر "الخناقات". التي تبدأ عادة بمناوشة بين الصغار تتحول إلى مناوشة بين الكبار. وهذه "الخناقات" كانت "عابرة للمنازل" أي كانت، بأسلوبها الخاص، تعبيراً عن الوحدة العائلية. إلا أن الوحدة كانت تتجلى، أكثر ما تتجلى، في المواسم الجميلة: رمضان والأعياد. في رمضان كانت العائلة، أعني الذكور من العائلة، تلتئم كل مغرب في مكان واحد. بيت الضيافة الذي كان يسمى "المكتبة" لأنه كان بالفعل ذات يوم، مكتبة عامرة. ضاع بعض محتوياته، وانتقل البعض الآخر إلى "البنك" حيث ضاع بدوره، وكانت مع الكتب والدوريات الضائعة وثائق تاريخية هامة. لا فائدة من البكاء على اللبن

المسكوب. تجتمع العائلة، أبوك وإخوانك وأولادهم، في "المكتبة" على سطح مفتوح. في انتظار المدفع. ومع المدفع يجيء الإفطار الأول، التمر وشيء من القهوة. ثم ينتقل الجمع إلى المسجد القريب الذي بنته العائلة حيث يصلون المغرب. ثم يعود الجمع إلى "المكتبة"، وإلى الإفطار الثاني، الحقيقي ، الهريس والثريد والسمبوسة والرز واللحم والمهلبية. وبعد الإفطار بقليل يؤذن لصلاة العشاء، وينتقل الجمع مرة ثانية، لصلاة العشاء. كان أبوك يصلي عشر ركعات من التراويح. ويغادر المسجد. وتغادر العائلة كلها معه. ومع انتهاء الصلاة يعود كل فرد إلى بيته الصغير. حيث تبدأ أنت وأقرانك وأصدقاؤك، "وصلة" اللعب في الشارع. في رمضان، وحده كان يسمح للصغار بأن يقضوا ساعة أو ساعتين بعد العشاء في اللعب.

كانت هناك لعبة "الخشّيشة" - وهي مشتقة من "الخش" التي تعني بالعامية البحرينية الاختفاء- وقواعدها هي القواعد المعروفة في كل زمان ومكان: يختفي الأطفال ويقوم الطفل سيىء الحظ بالبحث عنهم حتى إذا عثر على أحد تحولت المهمة إلى الطفل الجديد. وكانت هناك "الصّميدة" ولا تعرف من أين أُشتقّت الكلمة ، وتختلف عن "الخشيشة" في أن المختفي لا يظل في مكانه وإنما يجري إلى "المحبة"، مرفأ السلام. ويجري الباحث عن المختفين وراءه. وكانت هناك لعبة "الصرقيع"، وتعتقد أنها مشتقة من "الصّرقعة" أي الضجيج، وهي لعبة معقدة بعض الشيء لا يتسع المجال لشرح تفاصيلها. وكانت هناك دوماً المفرقعات, التي تشترى، وتسمى في البحرين، "الجراخي" ويتوقف حجم انفجارها على حجمها و(ثمنها)!. كما كانت هناك المفرقعات المصنوعة

محليا. التي يصنعها الطفل بمفرده أو بمساعدة أقرباء أكبر منه سناً. مفتاح مثقوب ضخم يربط على عصا قوية. وفي منتصف العصا خيط سميك وفي طرفه مسمار كبير. يملأ الطفل المفتاح باروداً مقتبساً من أعواد الكبريت. ثم يدخل فيه المسمار، ويهوي بالعصا على أقرب جدار. ويحدث الانفجار الصغير. قبل منتصف الليل كنت تعود إلى المنزل سعيداً ومتعباً لتنام نوماً عميقاً. أيامها، كنت صبياً لا يلزمك الصيام. كنت تصحو على إفطار لذيذ، هو نفسه سحور الكبار، يتكون من الخبز المرقوق واللبن والسكر. كان رمضان، أيامها يجيء في الصيف وأثناء العطلة المدرسية غالباً. كنت وأقرانك تنطلقون في الظهيرة إلى "الدولاب" - البستان بالعامية البحرينية- تقفون في الطريق عند "راعي المتّاي" مزودتين بروبيتين"، ما يعادل ريالين، وتشترون أطايب

التسالي الهندية، هذه "التسالي" بالإضافة إلى فاكهة "الدولاب" كانت تشكل وجبة الغداء، آه "الدولاب"!! قصة "الدولاب" قصة تطول، وتحتاج روايتها كاملة إلى كتاب كامل. كان هذا العالم الأخضر الجميل يشكل معلماً رئيسياً بهيجاً من معالم طفولتك. كانت هناك البركة، وماؤها البارد حتى في وهج أغسطس. حيث تعلمت السباحة، ثم أدمنتها. وكانت هناك صفوف وصفوف من الأشجار. محملة بكل ما لذ وطاب. كان هناك ركن خاص بالخضروات، لا يسلم من الإغارة الدورية، كانت الثمار لذيذة ومتنوعة. كان هناك الرمان والموز و"الباباي" والتوت والتين، و"البمبر" ، الفاكهة الشعبية البحرينية ذات السوائل المخاطية، بالإضافة إلى اصناف عديدة من الرطب. كان البستاني في كفالة مزارع يتعهد برعايته ويبيع منتجاته مقابل مبلغ

يدفعه للعائلة، مبلغ ظل يتناقص حتى تلاشى. الحق أنك، الآن، تعتقد أنه لم يكن يربح شيئاً على الإطلاق. مع الهجوم اليومي على الثمار والخضروات من صغار العائلة. ومع الهدايا من الرطب التي كان يدور بها على بيوت العائلة. ومع ولعه بتعدد الزوجات. تستبعد أن يكون عبدالله "راعي النخل" استفاد من "الدولاب" شيئاً يتجاوز نفقاته. وكان الرجل كريماً إلى أبعد الحدود. لا يضيق بهجوم الجراد البشري المستمر على الأشجار. في هذا "الدولاب" إذن تعلمت السباحة. وفيه قضيت أياماً لا تُنسى مع أقرانك. وفيه كنت تمارس هواية صيد الطيور. لحظة! ما لهذا الطفل المسالم وصيد الطيور؟! ألم يكن قبل، فترة وجيزة، يداعب الحمائم ويطعمها؟! المصادفة، وحدها كانت هي المسؤولة. متجر أبيك كان وكيل شركة البنادق الأمريكية الشهيرة "رمنجتون" . كان في

حقيقة الأمر، يتمتع باحتكار استيراد البنادق،ونشأت محاطاً بالبنادق. "بالشوازن". بمختلف أنواعها وبنادق عيار ٢٢ ملم، بمختلف أشكالها. واصطدت أول طائر قبل بلوغك العاشرة. الحقيقة أنك اصطدت الكثير من الطيور بالعديد من البنادق. ثم بدأت تسأم هذه المعركة غير المتكافئة. وتنفر منها. تود اليوم أنك لم تقتل طائراً واحداً من الطيور التي قتلتها. لا يجدي الندم! كنت حسن النية، وكنت، على أية حال، تأكل ما تصطاد، في معظم الأحيان. وتعلمت من تلك التجربة درساً لا ينسى، السلاح يغري بالعدوان، والأسلحة تغري بالقتل، وليقل من شاء ما يشاء. إلا أن هوايتك التي كانت تستمد منها أقصى درجات المتعة كانت صيد السمك. كانت العائلة تملك سفينتين، "سمحة" و"رابحة" تستخدمان في نقل البضائع والركاب وتستعملان، أحياناً لصيد السمك.

وكان كل من حولك يهوى صيد السمك. ونشأت خبيراً "بالحداق"، صيد السمك بالسنارة، والسفينة واقفة. و"باللفاح" صيد السمك والسفينة تتحرك. وبأنواع الأسماك ومواسمها. وظلت الهواية معك حتى اليوم. تمارسها كلما أتيحت لك الفرصة. وماذا عن الأعياد؟ العيد كان فرحة الأفراح. كان يأتي بثوب جديد، وأحياناً بثوبين. وبحذاء جديد. كانت فرحتك بالحذاء لا توصف. ذات ليلة، أخذت الحذاء الجديد معك إلى الفراش وضممته حتى الصباح. ظل أخوك نبيل يعيرك بهذه الحادثة حتى بلغتما مبلغ الرجال. أيامها، لم يكن الفارق بين الأغنياء والفقراء هوة مخيفة تتسع كل لحظة، كما هو الوضع اليوم. كانت العائلة، حسب التصنيف الشائع وقتها، من العائلات الغنية. ومع ذلك كنت تفرح بالثوب الجديد. والحذاء الجديد، ولم يكن في أسلوب حياتك ما يجعلك تحس أنك مختلف

عن الآخرين. ذات يوم سألت والدك: "أبي ! هل نحن فقراء"؟ وضحك وقال: "نحن، بحمد الله بخير لماذا تسأل"؟ وقلت: "انظر إلى البيت الذي نسكنه"!

وضحك، ولم يقل شيئاً. الآن، تعرف أن أباك كان يحرص على تنشئتك وإخوانك بلا ملاعق ذهبية أو فضية. ونجح إلى حد كبير. أما اليوم فالأمور مختلفة تماماً؟. عالم الأغنياء يختلف عن عالم الفقراء، جملة وتفصيلاً. لا يفرح طفل اليوم المدلل بسيارة جديدة، فهل سيفرح بحذاء؟! والثراء في موسم القلة يختلف عن الثراء في موسم الوفرة وعن الثراء في موسم البطر. ذات يوم، في الرياض، كان الأطفال يعيرون ابنك سهيل لأنه كان يجيء إلى المدرسة، في سيارة "شيفرولية" سيارة الفقراء! وكان السائق الذي يقود السيارة التي تقل زوجتك يتلقى تعليقات لاذعة من زملائه، تعليقات تهزأ من السيارة (الشيفرولية ذاتها!) .

الأمور نسبية على أية حال. وأيامها، كان الحذاء مصدر متعة كبرى. في الصباح كنت تذهب مع أبيك وبقية الكبار إلى صلاة العيد. وبعد ذلك إلى "المجلس". و"المجلس" قاعة كبيرة في الدور الأرضي من "المكتبة"، لا تفتح إلا في الأعياد. تتسع القاعة بمقاعدها الخشبية الطويلة المغطاة بالمقاعد لقرابة خمسين أو ستين شخصاً. وكان الجلوس يتم وفق ترتيب صارم يفرضه العرف، ويقوم على اعتبارات السن. الطبقية الوحيدة التي لا تذل أحداً. ولا يتأفف منها أحد. لأن الأسبقية تفرض على من يريدها ومن لا يريدها. ومن يطلبها ومن لا يطلبها. ولأنها ستصل إلى كل فرد لو امتد به الأجل. وان لم يمتد الأجل فما جدوى الأسبقية؟ كان أبوك يجلس في صدر المجلس، وعلى يمينه ويسارك الأقارب مرتبين حسب الأعمار. وكنت، مع أقربائك الصغار، تجلس بعيداً عن الصدر قرب

الباب. وكنتم، أقرانك وانت، تعدون مكانكم أفضل الأماكن لأنه يتيح الدخول والخروج بسهولة. ويجيء الزوار، دفعات دفعات. ومع كل دفعة تجيء القهوة والشاي ثم صينية "القدوع" وكانت هذه الصينية تحتوي على صحون صغيرة مليئة بالفستق و"الكازو" واللوز، الذي يسمى في البحرين "البيذان" بالإضافة إلى عدة أنواع من "البُرميت"، حلوى الأطفال! ولابد أن يكون في "القدوع" طبق من "بيض الصعو"، أو "الملبس" حسب التعبير المعاصر. وفي العيد تجيء "العيدية"، من أبيك وإخوتك الكبار. كانت الحصيلة وقتها تتراوح من أربعين إلى خمسين روبية. وهذا مبلغ هائل أيام كان مصروف الجيب اليومي لا يتعدى آنتين، قرابة عشر هللات. ومع اقتراب صلاة الظهر ينصرف المعايدون ولا يبقى إلا أفراد العائلة وعدد قليل من الأصدقاء. بعد الصلاة، ينتقل الموجودون إلى غرفة

الطعام حيث ينتظرهم غداء العيد الدسم. ومع انتهاء الغداء، تنتهي طقوس العيد الجماعية. كنت تقضي بقية اليوم مع أقرانك في اللعب، وتبديد "العيدية". كان العيد، بالذات، يتميز بلعبة غريبة بعض الشيء اسمها "طاش ما طاش" .

أيامها، كانت المياه الغازية تصنع بطريقة بدائية، في معامل بدائية، ولم تكن هناك مقاييس تضمن جودة النوعية. يمسك اللاعب زجاجة المياه الغازية "النامليت" ويهزها هزاً عنيفاً قبل أن يفتحها. إن طاشت المحتويات، فاز اللاعب وتحمل منافسه ثمن الزجاجة. وان لم تطش، انعكست الآية. أيامها كانت اللعبة مثيرة ومدهشة.

لا يعرف أحد متى ستطيش الزجاجة ومتى ستهدأ. قد تطيش كل مرة. وقد لا تطيش بعد عشر محاولات, أيامها لم تكونوا، أقرانك وأنت، تدركون أن

كمية الغاز المودعة في الزجاجة، والتي لم يكن بوسع صانع "النامليت"قياسها بدقة، كانت وحدها المسؤولة عن "الطيشان". كنتم تتصورون أن الهز العنيف كان المسؤول. الآن وكمية الغاز لا تختلف من زجاجة إلى أخرى لا يمكن أن يكون هناك "طاش ما طاش"، إلا في البرنامج التلفزيوني المشهور، لأن الزجاجة ستطيش كل مرة. انقرضت اللعبة، ولا أحسبك تأسف لانقراضها. فقد كان فيها قدر من المقامرة وكانت تودي بجزء لا يستهان به من "العيدية". وفي عيد الأضحى كانت هناك عادة غريبة. قبل العيد بأسابيع يبدأ كل طفل في زرع نبات في وعاء صغير. وليلة العيد يجتمع الأطفال على ساحل البحر، أقرب ساحل للبحر، ويلقي كل طفل نباته في البحر، لا تعرف أصل هذه العادة "الحيّة بيه" . ولا تعرف لماذا يجب أن تطعم النبات قليلاً من الرز،

"تعشّيه" في الليلة التي تسبق رميه في البحر. ولا تذكر الكلمات التي تصاحب رمي النبات. لابد أن هناك دراسات أنثروبولوجية عن هذه العادة لم تطلع عليها. كان هذا عالمك. وكنت سعيداً. في موسم الطفولة السعيدة. تذهب كل صباح إلى مدرستك، المدرسة الشرقية. تضرب كل حجر، وكل علبة تراها في الطريق بحذائك، أو نعالك، وكأنها كرة. وتضمك المدرسة مع الرفاق. وتمضي وقتاً طيباً. ثم تجيء "الفرصة" الاسم الشائع،وقتها، "للفسحة". وتعود إلى المنزل حيث تتناول الغداء بسرعة (لم تفارقك حتى اليوم!) وتهرع إلى المدرسة. حيث تجيء الفترة الثانية التي تنتهي في الساعة الرابعة.

ويا للعجب ! كم كنت تحب المدرسة! وكم كان أقرانك يحبونها! المدرسة الابتدائية التي تضم فرقاً للمسرح والخطابة والنشيد والأدب والكشافة

والفنون والموسيقى، وتعود إلى المنزل. حيث تجد ستّك سعاد، دائماً وأبداً، في انتظارك. تعد الدقائق والثواني. وعندما يجيء وقت النوم ينام الجميع في غرفة واحدة: سعاد وعادل ونبيل وأنت. لم يكن موسم الغرف المنفصلة قد بدأ، وفي ليالي الصيف، ينام الجميع على السطح، والرطوبة تنهمر كالرذاذ. يمكن عصر الماء عصراً من الملاءات. رغم المروحة الكهربائية العتيقة التي كانت تئز وتدور بلا جدوى. الطعام الجماعي، والسمر الجماعي، والنوم الجماعي. كان كل شيء، تقريباً، جماعياً. في أواخر الأربعينيات الميلادية تخرج أخوك عادل من الثانوية، بالتفوق المعتاد. وكان ينوي السفر لإكمال دراسته في بيروت. إلا أن ستك سعاد، في تلك الفترة، أصيبت بمرض القلب الذي منح تسمية ملطفة "جفاف الشرايين"، وقرر عادل انه لا يستطيع أن يسافر ويتركها في البحرين.

قرر أن، يضحي بدراسته الجامعية في سبيلها. ولا يعلم إلا الله مدى المعاناة التي مرّ بها قبل أن يصل الى قراره النبيل هذا. كان يتطلع، بلهفة، إلى إكمال تعليمه. وكان الجميع على ثقة أنه لن يجد صعوبة في الجامعة. فيما بعد. عندما أظهر موهبة غير عادية في معرفة الأمراض وأنواعها وتشخيصها وكيفية معالجتها كنتم إخوانك وأنت، تقولون له، مازحين أو شبه مازحين، إنه عوّض بهذه المعرفة العصامية عن دراسة الطب الحقيقية. بقي عادل بقرب "أم عادل" التي كاد الجميع ينسون أنه حفيدها وليس ابنها. وأنها لم تنجب سوى "الغالية" فاطمة، أمك. وماذا تذكر عن أمك؟ لاشيء! كنت في شهرك التاسع عندما رحلت. كيف يمكنك أن تتذكر شيئاً؟ وماذا تعرف عن أمك؟ أقل من القليل. في طفولتك كان الحديث عنها يثير المواجع. ولم تكن تريد أن تثير المواجع. وعندما

كبرت هرمت ذاكرة الذين عاصروها. وهم قلة قليلة، على أية حال. تعرف أنها كانت رائعة الجمال. تشهد بذلك صورتها قبيل الزواج، صورتها وهي ترتدي غترة وعقالاً، (لتتمكن من الظهور أمام المصور!) . وتعرف أنها فقدت الكثير من الجمال. صورتها التي أخذت قبل شهور من وفاتها، لا تظهر امرأة جميلة. تظهر امرأة مقطّبة بالغة السمنة. وتعرف، اليوم ، أن السمنة جاءت من إفراط في الطعام، جاء من الكآبة. ويالهذه الكآبة التي ترتدي ألف وجه وتقتل بألف سيف! لم تكن أمك سعيدة بإقامتها في الأحساء، ولا بمجتمع الأحساء. ولا بالقيود الكثيرة التي فرضت عليها في بيئة الأحساء. كانت تتوق إلى مجتمعها القديم في الحجاز. ثم مرضت بالتيفوئيد. ولم يكن هناك أطباء ولا مستشفيات في الأحساء.

وماتت في عامها الثامن والعشرين. ذهبت دون أن

تعرفها. لا تعرف كيف كانت تتعامل مع الوجود ومع الناس. ولا كيف كانت تضحك. وكيف كانت تبكي. ولا تعرف شيئاً عن طباعها أو مزاجها. أو عاداتها أو هواياتها. والصور الفوتوغرافية البكماء تقول شيئاً وتعجز عن قول أشياء. ما تعرفه أن موتها ترك غمامة صغيرة من الحزن لا تزول عن أفق العائلة الصغيرة. ظل القَسَم، الذي لا يجيزه الشرع شائعاً في البيت سنين طويلة:و"دفنة أمي"! .

وكنت أنت، بين الحين والحين، تلجأ إلى الابتزاز: "لو كانت أمي حية لما حصل لي هذا!" وكانت هذه جملة قاسية. مفرطة في قسوتها. كفيلة، كل مرة، بجعل الدموع تسيل من عيني جدتك . والذين يعتقدون أن الأطفال الصغار لا يعرفون القسوة لا يعرفون شيئاً عن الأطفال الصغار. لم تسمع أخاك عادل أو أخاك نبيل يتحدثان عن أمكم، قط. الوحيدة التي كانت

تتكلم هي أختك حياة. كانت تتكلم عنها كثيراً. إلا أن حياة كانت في العاشرة، أو دونها، عند موت أمك. وماذا بوسع طفلة العاشرة أن تتذكر؟ هل كان هناك شبه، في الشخصية والطباع، بين الأم والبنت؟ لا تدري! تزوجت حياة، وهي مراهقة، وجاء ولدها الأول فاروق. وكان الاسم شائعاً وقتها بسبب الملك فاروق، ملك مصر. ثم جاءت ابنة، سمتها أختك فاطمة. اسم المرحومة. اسم " الغالية" . وفي تلك المرحلة رأيت، بعينيك، كيف كان من حولك يحتضنون فاطمة الصغيرة، ويبكون، متذكرين، فاطمة التي رحلت. لعلك، وقتها، قررت، في قرارة نفسك وعلى نحو غامض ومبهم، أنه لا يجوز أن ينشأ طفل في ظل إنسان آخر. ولا يجوز أن يثير اسم الطفل، كلما ذكر، الدموع . وعندما شاء الله أن ترزق بابنة وأبناء لم تسمّ أحداً منهم باسم أحد أقاربك الراحلين. رغم حبك

العميق لنبيل، لم تسم أحدا من أبنائك باسمه. ورغم حبك العميق لأبيك، لم تسم أحداً من ابنيك اللذين جاءا بعد رحيله باسمه. ولكن، يا للمفارقة! ، استطاعت ابنتك يارا، وزوجها فواز، تسمية ولدهما الثاني باسمك. رغم معارضتك العنيفة. باستعمال الدهاء والحيلة. ولهذه التسمية قصة طريفة ذكرتها في موضع آخر، فلا مبرر لتكرارها. وماذا عن أقرانك اليوم؟ بقي منهم من بقي، في حفظ الله. وذهب منهم من ذهب، إلى رحمة الله. أول من ذهب كان أحمد، ابن اختك نورة، مد الله في عمرها، وجارك في السكن. كان فتى موهوباً بالغ الذكاء. وكان، دوماً، أول دفعته. وكان يتقن الرسم والكتابة والتصوير. وكانت مداركه تفوق عمره بمراحل. أسس، وهو في الابتدائية، مع عدد من زملائه، جمعية للعمل التطوعي، شعارها، " ما استحق أن يولد من عاش لنفسه

فقط". وذهب للدراسة في بيروت، ومنها إلى بريطانيا. وكان كعادته، متفوقاً. وكان الجميع يتوقعون له مستقبلاً زاهياً. إلا أن الأجل كان بالمرصاد. ذهب إلى فرنسا حيث كان ينوي قضاء بضعة شهور في تعلم اللغة الفرنسية. ومات ذات ليلة شتائية. فاته أن يزيح الغطاء الذي يسمح للدخان بالخروج من المدخنة. وتسلل القاتل الخفي، في الظلام، ومات أحمد في نومه قبل أن يبلغ العشرين. رحمه الله! وبعد ذلك، بسنين طويلة، توفي جاسم، ابن اختك منيرة، رحمها الله! ولك مع جاسم ذكريات طويلة، معظمها باسم ضاحك، لا تتسع لها هذه الأوراق. كانت شخصية جاسم تنطوي على الكثير من التمرد. والكثير من الاعتداد. والقليل من المصانعة. لم يكن في عالمه مجال لكثير من الظلال. لم يكن هناك سوى الأبيض والأسود. وكعادة المجتمع مع كل متمرد أعلن المجتمع

على جاسم الحرب. وكان جاسم لا ينتقل من معركة إلاّ إلى معركة. حتى أرهقته المعارك وأسلم الروح لبارئها. رحمه الله! وبعده بسنين قليلة توفي أخوه فيصل. وكان، على نقيض جاسم، وديعاً بالغ الوداعة. رقيقاً مفرط الرقة.

وكان هادئاً مسالماً حتى في أيام الطفولة. وكان يؤثر أن يعيش حياته بسلام، بعيداً عن الناس، وأعين الناس. وذات صباح، بلا سابق إنذار، توفي فجأة، رحمه الله! وذهب سليمان، ابن اختك لولوة، مد الله في عمرها، مع الموكب الحزين. كان سليمان يصغرك قليلاً، ولم يكن جزءاً من حياتك اليومية. انتقل أبوه، عبدالمحسن، ابن عمك وأمه أختك لولوة، من " البيت العود" إلى سكن منفصل. ومع السكن الجديد انقطعت علاقة سليمان، وأخوه الأصغر فوزي، بحياة الفريق القديم. كان سليمان ميالاً إلى العزلة، في

طفولته وبعد طفولته. وكان، بدوره، مسالماً وديعاً.
ومات في حادث سيارة قبل أن يبلغ الخمسين.
السيارات القاتلة مره أخرى! رحمه الله! ورحل محمد
ابن أخيك خليفة، ابنه الأكبر، مع من رحل. كان محمد
يكبرك قليلاً. ولم يكن جزءاً من حياتك اليومية. لا لأنه
يكبرك، بل لأن فارق السنّ وقتها، وضعه في "طبقة"
تختلف عن "طبقتك". وضعه في "طبقة" نبيل
أخيك ، وخالد ابن أختك منيرة، وعبدالوهاب ابن عمك
عبدالعزيز. وأيامها كانت هناك خطوط غير مرئية
تفصل بين "الطبقات" ، وتحول دون تداخلها. بمرور
السنين لم يعد فرق ثلاث سنوات أو أربع بذي معنى.
وامتزجت "الطبقات". أصبح محمد صديقاً عزيزاً
قريباً من قلبك. ومحمد مر بتطور عجيب. كان خلال
مراهقته وصباه شاباً رياضياً لا يخلو من حدة في
الطبع ألقت به في عدد من المشاكل. وكان ، في تلك

الفترة، يعيش الحياة بكل مباهجها. ثم مر بانقلاب كامل تم بهدوء. كلما تقدمت به السن كلما أصبح زاهداً في الدنيا ومنها. تمحورت حياته كلها حول زوجته سهير، ابنة أختك حياة، وولده هيثم وابنته رشا. أعتقد انه لولا هؤلاء الثلاثة لاعتزل الدنيا وعاش كما يعيش الرهبان . تحول إلى التأمل، التأمل الداخلي، وإلى قراءة الكتب، وإلى زيارة الرجال الصالحين. كنت أخشى أن أقول له إنه أكثر زهداً في الدنيا من كثير من الصالحين الذين كان يزورهم . لم تبق له متعة سوى صيد السمك، وعبر سنوات عديدة، كنتما، أنت وهو، تبحران مرة في الأسبوع في رحلات صيد. وعندما أصيب بسرطان الغدد الليمفاوية تقبل الأمر بصبر المؤمنين الموقنين. وظل أكثر من عشر سنوات يصارع المرض بهدوء وتفاؤل . لم تسمعه مرّة يشتكي . ولم تسمعه، قط، يتألم. ولم يكن من شيمه أن يتذمر.

حتى في الأسبوع الذي سبق دخوله إلى غرفة الإنعاش، التي لم يخرج منها حياً، كان إذا سأله أحد عن صحته يحمد الله ويقول إنه بخير. رحمه الله! وأنت لازلت تقلب دفتر الذكريات. ثم تقف طويلاً عند سنة بذاتها. كانت نقطة تحول كبرى في حياتك وحياة من حولك. إلا أنك لم تدرك ذلك في حينه. حقيقة الأمر، إنك لم تستوعب كل أبعاد التغيير إلا على دفعات، وفي فترات متباعدة. في سنة ١٩٥٢م انتقلت من مرحلة الطفولة إلى مرحلة المراهقة. بكل ما يصحبها من تغييرات، عنيفة سلميه، في الروح والجسد. وانتقلت من المدرسة الابتدائية إلى الثانوية " الإعدادية حسب المناهج الحالية". وانتقلت أسرتك الصغيرة، ستّك وإخوانك، من البيت الصغير إلى بيت مستأجر كبير. الحق أنه كان كبيراً جداً بمقاييس تلك الفترة. كان مكوناً من ثلاثة أدوار، في كل دور عدد من القاعات

والغرف. كان ذات يوم، مدرسة. وكان، ذات يوم، قسماً داخلياً. وانتقلت أختك حياة وزوجها وأولادها من" البيت العود" لتشارككم السكن في البيت الجديد. حقيقة الأمر أن " البيت العود" في تلك الفترة لم يعد " عوداً". لم يعد به سوى ابن عمك محمد ، وأختك منيرة، رحمها الله! وكنت تقلب النظر، حائراً، في أرجاء البيت الضخم الجديد. لم تدرك وقتها، وتدرك الآن، أنك بدخول هذا البيت دخلت موسماً جديداً في حياتك. يختلف، في كثير من تفاصيله، عن المواسم السابقة. لم يعد هناك لعب مع الأقران في الشارع " والبراحة".

كان الشارع أمام المنزل يعج بالحركة، بالسيارات، وكل وسائل الانتقال الأخرى، والمشاة. ولم تكن هناك"براحة" بقرب المنزل. وفي المدرسة الثانوية تعرفت على أصدقاء جدد. وافتقدت بعض أصدقائك

القدامى. وفي تلك المرحلة بدأ عالمك الداخلي يطغى على عالمك الخارجي. دخلت دنيا الشعر. ودنيا القراءة. ودنيا الكتابة. واختفت النشاطات البدنية، أو كادت. وفي الوقت نفسه، كانت تدور في مجتمع العائلة تغييرات كبيرة، جاءت على مراحل، ولم يكن بوسع أحد التنبؤ بما ستنتهي إليه. سافر أخوك خليفة إلى جدة ليبدأ هناك عملاً جديداً منفصلاً عن عمل العائلة. وسافرت معه زوجته وأولاده. خليفة كان أكبر أخوتك الذكور. من أولاده من كان يكبرك سناً. وفي البداية، كانت نظرتك إليه لا تكاد تختلف عن نظرتك إلى أبيك. فيها الكثير من الاحترام، وقدر من الخوف. إلا أن أخاك خليفة كان يتمتع بشخصية ساحرة جذابة. تذيب الفوارق بينها وبين الآخرين، كباراً وصغاراً . وتجذب إليها كل من حولها، كباراً وصغاراً. كان سخياً مفرطاً في السخاء، يعطي من ماله

الكثير، ويعطي من نفسه أكثر من الكثير. في وقت مبكر، منذ أيام دراستك في القاهرة، ذابت كل الحدود بينك وبين أخيك الأكبر - أصبحتما صديقين، وظللتما حتى مات، بعدها بسنين طويلة، صديقين - رحمه الله! وفي المرحلة نفسها انتقل أخوك فهد إلى الخبر ليتولى المسؤولية عن أعمال العائلة فيها وفي الرياض. وانتقلت معه زوجته وأولاده. كانت المملكة تمر، أيامها، بطفرتها الأولى، طفرة الخمسينيات. وكان سوقها يتفتح عن فرص كبيرة لا توجد في سوق البحرين الصغير. شيئاً فشيئاً، دون أن يشعر أحد، كان مجتمع العائلة الواحدة، يتفتت . سافر أخوك إبراهيم وزوجته لولوة وأولاده إلى قطر، حيث بدأ عملاً جديداً هناك. خرج أخوك مصطفى وخالد من "البنك" مع عائلتيهما إلى بيتين منفصلين . أغلق المطبخ الجماعي وقرر مخصص شهري مالي لكل

بيت. "المكتبة" ظلت الرمز الوحيد للوحدة. ولم تكن " المكتبة" تفتح أبوابها إلا في الأعياد. وفي السنة نفسها سافر أخوك نبيل في رحلته الدراسية الغريبة. كانت البداية في مطار الظهران، حيث كان يستعد للذهاب إلى بعثة تؤهله للطيران العسكري. ولسبب أو آخر تأخرت البعثة. وصرف نبيل النظر عن الطيران العسكري، وذهب إلى بيروت. المحطة الثانية ضمن عدة محطات. المفارقة أن الفتى الذي كان يود أن يصبح طياراً عسكرياً تحول إلى رجل يخاف ركوب الطائرة. كان يسميها "ممتحنة الهمم" . وكاد يردد، بإعجاب ، بيت شوقي: "أركب الليث ولا أركبها.. وأرى ليث الشرى أوفى ذماما". والذين يخافون ركوب الطائرة كثيرون، ولهم قصص طريفة. ليس هذا محلها. بدأ مع الخمسينيات، إذن، موسم جديد. انتهى موسم العائلة الممتدة وبدأ موسم العوائل

الصغيرة "ذات الخلية الواحدة" - كما يقول التعبير الغربي. تزوج أخوك عادل وبنى بيتاً جديداً. تزوج تلك، الفتاة اللبنانية التي كانت في ربيعها السادس عشر. كانت إنسانة ثرية الإنسانية. تأقلمت، بسهولة، مع المجتمع الجديد الغريب. ومع توقعات زوجها التي كانت بلا حدود. وعندما جاء غسان، وتبعته مها، تحولت العروس الشابة إلى أم مثالية. ترعى الولد والبنت بكثير من الحب وكثير من الذكاء. وسرعان ما أصبحت وجهاً مألوفاً في مجتمع البحرين النسائي. وشاركت في إنشاء جمعية خيرية، تعنى بالطفولة والأمومة، كانت من أوائل الجمعيات الخيرية في البحرين. ولا تزال تعمل حتى اليوم. وماتت في عامها التاسع والعشرين، في حادث سيارة. السيارات / المشانق! السيارات/ الكراسي الكهربائية! رحمها الله! وفي هذه الأثناء انتقلت أختك حياة وزوجها وأولادها إلى

منزل منفصل. بدأ عقد الخمسينات بانفصال المنازل، وانتهى بانفصام كامل في المنظومة. قسم أبوك عمله التجاري على إخوانك. لم يعد هناك (حفيز) واحد يضم الجميع. ولا (بيوت عوده) تضم العشرات. وكان أبوك متألماً لما يدور. وحاول أن يقاومه إلى آخر لحظة. آلمه، قبل سنين، انفصاله عن إخوانه، وآلمه، بعد سنين، انفصال أبنائه. إلا أن المواسم لها منطقها الذي لا يقبل التأجيل ولا التسويف. وقبل أبوك بالأمر الواقع. أوّاه! ماذا تقول عن أبيك؟ كان رجلاً سبق جيله، بأجيال. وسبق مجتمعه، بمراحل. كان متديناً، على الطريقة السلفية، وكانت له علاقات قوية مع أصدقاء من مختلف المذاهب والأديان. طبع على نفقته عشرات الآلاف من الكتب، - كتب الفقه الحنبلي المعتمدة، - ووزعها على أوسع نطاق. الظاهر، المحقق، إنه لم يجد في شيء من هذه الكتب (الولاء

والبراء) كما يفهمه، ويدرسه، ويحاول أن يفرضه، البعض هذه الأيام. كان أبوك رجلاً لكل المواسم عرف الفقر كما عرف الغنى. عرف الصحة وعانى المرض. صاحب الملوك والأمراء وكان شديد القرب من البسطاء والفقراء. حملته تجارة اللؤلؤ إلى الهند وأوروبا. تحسب، وتوشك أن تجزم، أنه كان من أوائل السعوديين الذين زاروا لندن، وباريس، وبقية العواصم الأوروبية. ووسّعت هذه السفرات أفقه. وتعلم كيف يحترم الآخرين ، ويحترم حقهم في الاختلاف. وكان في صراع صامت مع التقاليد الخانقة التي تحيط به. ومع قيود المجتمع التي لا ترحم أحداً. كان يحترم التقاليد دون أن يخلط، قط، بينها وبين الدين. وكان يعيش في الحدود التي يرسمها المجتمع، دون أن يسمح للمجتمع بأن يصوغه على مثاله. وتزدحم ذاكرتك. بصور لا تنتهي عن أبيك في تلك المرحلة. ترى نفسك تغوص

بين المقاعد، في مكتبه الصغير، لتجمع ما تساقط من لؤلؤ، وتتلقى المكافأة، ربع روبية. تتذكر كيف كان يطلق عليك، وعلى أصحابك، اسم (طقة خرخر) ـ الصفة التي يصعب شرحها ـ والتي تحمل الكثير من التبسط. تذكر كيف أطلق على حفيد من أحفاده كان يستظرفه لقب الشاعر العباسي المعروف، (أبي دلامة)، وظل اللقب مع الحفيد، لا يفارقه ، سنين طويلة. تذكر كلماته في وصف خطيب ممل: (خطبه مثل ليالي الشتاء، باردة وطويلة). وتذكر أنك، لم تره، قط غاضباً. ولم تسمعه، قط، يشتم أحداً. كان عندما يستاء من أحد يسميه (الترّس). (الترّس؟!) ماهو (الترّس)؟ تذكر أنك سألته، ذات يوم، عن معنى الترّس. وتذكر كيف أجابك، مبتسماً، أن الكلمة لا تعني شيئاً لا تعني سبّاً ولا شتماً ولا قدحاً. ولهذا فهو يستخدمها بدلاً من استخدام كلمات السبّ

والشّتم والقدح. كان هذا درساً بليغاً ، حاولت، بلا جدوى، أن تتعلمه. كما حاولت أن تتعلم منه تسامحه اللامحدود. وتعامله الحضاري مع الجميع. واحترامه خصوصيات من حوله في عهد لم يكن فيه الآباء يحترمون خصوصيات أبنائهم. حاولت أن تتعلم. وتعلمت أشياء. وفشلت في تعلم أشياء. كان أستاذك الأول، والأفضل. رحمه الله! ودارت السنين. وجاءت مواسم كثيرة. ورحلت. ومر بالأسرة التي انفصلت ما يمر على غيرها من البشر. من مواسم فرح ومواسم دموع. وها أنت ذا، الآن، في الخامسة والستين، تودع مواسمك كلها. وتسعد برؤية مواسم أولادك. وأولادهم. أولادك، بحمد لله، يعيشون في مجمع سكني صغير واحد، وفي بيوت متجاورة. ويارا، وزوجها وأولادها، تعيش على مرمى حجر. يجتمع الأولاد والأحفاد عندك في نهاية الأسبوع. حين تسمح لك

ظروف العمل بالزيارة. ويجتمعون عند يارا وزوجها كل جمعة. وأنت سعيد بموسم الوحدة العائلية الجديدة. ورموزها الجديدة. ترقب، دون أن تتدخل، مواسم أولادك. يارا، مشغولة هذه الأيام، من قمة شعرها حتى أخمص قدميها، بمشروعها التربوي الجديد، مدرسة الأطفال الصغار التي تتبع نهج (منشوري). وهذا شيء لا تعرفه أنت. لا يعرفه سوى المختصين في التعليم. ترقب سعادة يارا، وهي ترى المشروع ينمو كما ينمو الطفل. وسهيل يقضي معظم وقته في مشروعه الرياضي الصغير. ويقضي بقية الوقت في التفكير في مشاريع تجارية أكبر، وأكثر ربحاً. سهيل لديه طموحات تجارية واسعة. لا تدري إن كانت ستتحقق. ترجو أن تتحقق. رغم أنك لا ترى لديه هذا العشق الجنوني للمال - العشق الذي لا يصبح المرء ثرياً بدونه -. ولله في خلقه شؤون. وفارس، يصارع

الرغبة في الانتقال من عمل إلى عمل. يكتشف فارس أن المؤسسة التجارية التي يعمل بها مليئة بالصراعات والوعود الكاذبة والمؤامرات. يكتشف أن دهاليز المؤسسة التجارية مزروعة بالخناجر المسمومة، شأنها شأن دهاليز الوزارات. ونجاد يتململ في وظيفته (التدريبية) في مؤسسة مصرفية. نجاد يكتشف صحة ما قلته له ذات يوم: في المؤسسات العربية لا يدرب أحد أحداً. يترك المتدرب وشأنه. وعليه أن يأخذ حقه في التدريب بالقوة. ونجاد مسالم لا يحب القوة، رغم حزام (الكاراتيه) الأسود الذي حصل عليه من سنين. فارس ونجاد في موسم التململ. ولم لا ؟ التململ، في مرحلة الشباب، من محفزات الطموح ومن مفاتيح المستقبل. التململ في الكهولة قضية أخرى. وترقب، بحب، مواسم أحفادك. فهد، في الثانية عشرة، ينتقل إلى موسم المراهقة ، محملاً بكثير من

المواهب، في الدراسة وفي الرياضة وفي (البنج بونج) التي تسربت عن طريق الجينات، وإلا كيف أتقنها بعد أسبوع واحد من تعرفه عليها؟ كتب فهد في السنة الماضية، قصة قصيرة حصلت على جائزة من نادي القصة بمدرسته. ترى أيولد أديب آخر في العائلة؟ وأخوه غازي في العاشرة، يذكرك بصورك حين كنت في سنّه. غازي متعدد الأنشطة، كأخيه فهد. إلا أن له عالمه الداخلي الذي لا يسمح لأحد بدخوله ، عالم الأفكار والتأملات التي لا يطلع عليها سواه. وأختهما الصغيرة تالية - التي تحب أن تسمى نفسها (تلوش)!ـ دفقة من الضوء واللون والضحك. تستطيع في سن الثانية، أن تتعامل مع جميع الأعمار. تكون مع أبيها أو أمها في مطعم أو متجر. وتختفي فجأة. ويتم العثور عليها، في ركن من أركان المطعم أو المتجر تتبادل الأحاديث مع الصغار والكبار.

الأحاديث التي يفهمها من يفهمها ويجهلها من يجهلها. وسلمان الذي ينتقل من السادسة إلى السابعة، يمر بموسم (كرة القدم). ويأخذ كرة القدم بكثير من الجدية. عندما انهزم الفريق السعودي أخبرك أنه يفكر في التخلي عن جنسيته السعودية وطلب جنسية برازيلية. وطلبت منه أن يتريث حتى تنتهي المباريات. وعندما هزمت البرازيل خفت حماسته للجنسية البرازيلية. قلت له: (هناك مواسم، يا بني، حتى في كرة القدم!) ودانة أخته الصغيرة، تدخل سنتها الثانية، وتعشق أن تمشي ممسكة بيد أحد من الكبار. تمشي حتى يتعب الكبير ولا تتعب هي. وتقول كلاماً كثيراً يصعب فهمه. باستثناء (ددي) التي تفهمها أنت جيداً (والبيه) التي تعنى (البسة). تذكرك بما قلته ذات يوم في عمتها يارا. (تصيّر الحرف عيداً حين تنطقه). وسلمى، ابنة

سهيل، تبدو، في الرابعة، كأميرة أسطورية ساحرة. حقيقة الأمر أنها تحب الأساطير وتحب ما تزدحم به الأساطير من ملوك وأميرات وأمراء وسحرة وساحرات (خيرات). ولسلمى مجموعة من الفساتين المقتبسة من الأساطير. هذا فستان سندريلا. وهذا فستان الأميرة النائمة. وهذا فستان الساحرة الطيبة. وتستطيع سلمى أن تقضي الساعات في الاستماع إلى القصص (وتأليفها أحياناً!). هل هذه بشائر أديبة جديدة في العائلة؟! وأخوها الأصغر، ليث، له من أسمه نصيب ضئيل. هو وديع مسالم إلا إذا تجاهل الكبار ما يعتبره حقه في اتخاذ القرارات التي تلائمه. يصعب ترك طفل تجاوز الثانية بشهور لقراراته! عندما يحدث هذا العدوان عليه، يزأر كالليث. ثم يعود إلى طبيعته الهادئة. وهو يمر، هذه الأيام، بموسم المخلوقات البحرية، يعشق الأسماك بشتى أنواعها ولا

يمشي إلا وفي يديه (تمساح) أو (سمك قرش) أو (دولفين) (المطاط طبعاً!). تتذكر في هذا المجتمع الصغير مجتمعك القديم، وتسعد حين ترى بعض الإيجابيات التي لم تكن تعهدها في طفولتك. هنا يحترم الجميع (الخصوصية)، فلا يقتحم أحد منزلاً بدون ترتيب مسبق. وهنا لا تنتقل مشاكل الصغار إلى الكبار. وهنا يُربّى الأولاد بطريقة مختلفة. بلا ضرب ولا صراخ ولا وعود ولا وعيد. تحمد الله، الذي أقر عينك بأولادك وأحفادك. والوحدة العائلية التي تتمنى أن تدوم. وتدعو الله أن يرزق الأولاد والأحفاد من الإيمان ما يجعلهم قادرين على المرور بمواسم الحياة كلها، الحلوة والمرة، بكثير من الرضا والاطمئنان.

رجب /١٤٢٧ هـ
يوليه / ٢٠٠٦ م

- أما الآن. وفي الخامسة والستين، فبلاؤك في الروح. أزمتك أزمة روح وأزمة جسد. أزمة روح تململت في سجن الجسد، وأزمة جسد أضناه تململ الروح.

- وأنت في الخامسة والستين. تحمل ألف جرح. بعضها ينزف. وبعضها جف. وبعضها يتكون. وتشعر بإرهاق يملأ جسدك وروحك.

- وأنت في الخامسة والستين. تشعر أنك غصن بقي بمفرده على الشجرة. طائر رحلت الأطيار وتركته عاجزاً عن اللحاق بها.

- كأنك كما قال صاحبك القديم "عجب في عيون العجائب".

- أنت تنوء بالسنين. ولا تحاول إنكار عددها. تحس وطأتها في كل خلية من خلاياك.

- ولم يكن في أسلوب حياتك ما يجعلك تحس انك مختلف عن الآخرين. ذات يوم سألت والدك: "أبي ! هل نحن فقراء"؟ وضحك وقال: "نحن، بحمد الله بخير لماذا تسأل"؟ وقلت: "انظر إلى البيت الذي نسكنه"! وضحك، ولم يقل شيئاً. الآن، تعرف أن أباك كان يحرص على تنشئتك وإخوانك بلا ملاعق ذهبية أو فضية. ونجح إلى حد كبير.

Damah دامه
للدراسات والنشر

ردمك:٦-١٦٦-٥٦-٠-٩٩٦٠